

(٥)

طفل (عليل) على ذراع متسولة*!

هذه المرأة القارحة الغليظة الوجه التي لا تتعب من التسول.. أنت تعرفها، إنها واحدة من نسوان كثيرات يملأن نفسك ألماً وخجلاً، لأنهن أخذن طفلاً بريئاً مسكيناً واستخدمنه وسيلة للتسول وجمع القروش.

وهذا الطفل العليل المسكين الذى تعذبه هذه المرأة وشبيهاتها، وتحمله على كتفها زاعمة أنه مريض مسكين، هو فى الحقيقة طفل عزيز عليك، إنه قطعة منك ولهذا فأنت تتمنى أن تنتزعه من أيديهن القاسية، وتضعه حيث يلقي العناية والعطف الإنسانى، ويشب رجلاً سوياً ويسير على قدميه.

إن هذا الطفل فى الحقيقة ليس مشكلة، فهو ليس مريضاً أو عليلاً، ولكن المشكلة هن أولئك النسوة القوارح المتسولات.

لا سبيل إلى الحياة الكريمة لهذا الطفل إلا إذا تخلص من أولئك المتسولات به، اللاتي جعلن منه مأساة، وما هو بمأساة على الإطلاق.
امرأة (بالملاية اللف) على قارعة طريق.

على ذراعها طفل عليل ملقى على الكتف كأنه خرقة هالكة، المرأة بطفلها على الرصيف، لا يمر إنسان إلا أسرعته إليه: (شىء لليتيم يا سعادة البية.. شىء لله يا ست هانم.. حاجة للولد الغلبان ده يا محسنين)!

وتظهر إشارة المرور الحمراء وتتوقف السيارات، المرأة تقفز بالطفل، كأنها شيطان، ومن سيارة لسيارة تستعطف للطفل وتتسول باسمه، وتمتلئ الكف الممدودة بخمسات القروش تندس فى الجيب. وتخضر

* نشرت هذه المقالة فى ٢٤ يناير ١٩٨٢ م.

إشارة المرور وتنطلق السيارات، وتقفز الشيطانة إلى الرصيف الآخر وتمضى عملية التسول، وتمتلئ اليد بالقروش، ربما بالخمسات ويستقر ذلك كله فى الجيب.

وهكذا من أول النهار إلى آخر النهار.

وطول النهار والطفل المسكين على الكتف كأنه خرقة مبللة ملقاة على مسند كرسى قديم، أحياناً يصحو ويتلفت حوله، وأحياناً يبكى، وتمد المرأة القارحة يدها التى لا تغسل أبداً وتخرج كسرة خبز تناولها للغلام، الغلام يلقي بها إلى الأرض لأنه ليس جوعان بل عطشان، والمسكين مبلل ملتهب الجلد، والمرأة لا وقت لديها لتسقيه، ولا صبر عندها لتتنظر فى ثيابه المبللة وجلده المهترى. وتشعر هى بالعطش، فى حارة مجاورة يقف بائع خيار، تمضى مسرعة نحوه لتشرب وتعود إلى موقعها، فهى لا تطيق أن تفقد خمس دقائق من اليوم.. بائع الخيار الطيب يعرفها ويقول لها:

- يا أولية، الولد هلك.. ارحميه شوية.

وبكل وقاحة تقول المرأة وهى تكرع من كوز ماء:

- حرام عليه.. الولد هلك! وأنا ما هلكتش..؟ طول النهار شايلاه على كتفى زى الحجر.

- ده الولد مبلول غرقان يا أولية حرام عليك.. غيرى له ثوبه ولباسه، نشقيه.. أنت تجمعين من ورائه الذهب.

- دهب ايه يا حسرة، وهل بقى فى الدنيا محسنون.. والله يا عم عطية ما جمعت إلى الساعة ما اشتري به غذائى.

- طيب هاتى الوالد يا أولية، أنا أغسله وأشوف له حاجة ناشفة من عندى ألفه فيها.

- طب بالعجل.. ليس عندي وقت لك أو له.

ويأخذ الرجل الطفل وهو بقول: لا حول ولا قوة إلا بالله يارب.. ده الولد ميت من العطش ياولية.. وهدومه مبلولة تنعصر.

ويرقد الرجل الطفل على جانب من عربة اليد إلى جانب الخيار، ويأمر امرأته بأن تتولى عمل البيع بينما هو ينزع ملابس الطفل، ويغسله بالماء البارد وتناولها امرأته خرقة جافة يجفف الطفل بها، ثم يلفه فى خرقة أخرى. وتأخذ المرأة خياراً فتناولها للطفل.. ويقول الرجل:

- لا ياولية.. هذا الطفل صغير لا يأكل الخيار.. روحى هاتى باكو بسكوت من البقال ده.

- بسكوت؟ منين يا حسرة.. وهل أنا وجدت الخبز حتى أطمع (مقصوف الرقبة) هذا بسكوتا؟ لقد دفعت لأمه ثلاثين قرشا إيجارا قبل أن أتسلمه.. ثم تقول لى أن اشترى له بسكوتا؟..

- ياولية وانتى فى جيبك جنيهاات من وراء هذا المسكين.. افرضى أنك أخذته من أمه بخمسة وثلاثين قرشا.

- يفتح الله يا عم عطية.. عاوز تجيب له أنت بسكوت والا حتى بقلوة هات له أنت.. وأنت - عيني عليك باردة - جيبك مليون.

ويأمر الرجل ابنا له يلعب جواره بأن يشتري باكو بسكويت بعشرة قروش، ويكون الطفل قد انتعش من هذه (الإغاثة) أو الغوث.. التى تداركه بها الله، وينجلي وجهه جميلاً لطيفاً بعد أن اغتسل وشرب، ويأتى البسكويت فيأكله والمرأة كالشيطان تتمللم، إنها تريد أن تخطف الطفل وتجرى به إلى موقف التسول المختار، ولكن الرجل يستمهلها ويأكل الطفل ويضحك، ويتألق وجهه الوسيم وتبدو عيناه السوداوان الجميلتان، ويأتى ابن عم عطية ليلعب معه، المرأة ينفد صبرها. إنها

لا تطيق رؤية السيارات تقف عند إشارة المرور وفيها سادة فى جيوبهم مال، يمكن أن يجودوا منه بشيء، فتخطف الطفل، وتخطف من يد الرجل بقية البسكويت وتدسه فى فمها، وتمضى إلى قارعة الطريق.

والغلام المسكين روعه ما فعلته تلك القاسية فبكى، وسرت المرأة ببكائه فاسرعت فى خطوها لأن بكاء الطفل يعتصر قلوب المحسنين، ومن رصيف لإشارة مرور، ومن إشارة مرور إلى الرصيف الآخر، واليد القذرة تأخذ الخمسات والقروش وتضع فى الجيب الذى لا يمتلئ أبداً. ويأس الطفل من الرحمة ويدركه التعب فيرتدى رأسه على الكتف وينام، وعلى الدموع تقفل عيونته، والشيطانة تقفز به من ناحية لناعية وتمضى ساعات النهار.

فى آخر نهار مهلك تعود المرأة بالطفل إلى الحارة التى تقطن فيها، قبل أن تأوى إلى دارها تمر ببيت أم الطفل وتلقى بهذا (الشيء).. الذى قضت النهار تحمله على كتفها تقسم بالله إنها ما كسبت به قدر ما دفعت، الأم شقية كثيرة العيال ولها زوج كأنه الضيع التى تعيش على الرمم.. هذه الزوجة فى نظره (رمة) يتشمها آخر الليل لياخذ منها ما بقى فى جيبها من قروش. إن له منها سبعة أولاد أو ثمانية كلهم يعيشون على قوارع الطرق، بعضهم على أقدامهم، والباقى على أكتاف نسوان كهذه التى كنا معها..

هذه المرأة حاملة الطفل لتتسول به هى فى نفسها ضبع، ولها زوج ضبع مثلها، إنه يلم بها آخر ليلة التعيس ليقضى معها وقتاً تعيساً ولكنها ترضى به، فقد ماتت فى كيانها الإنسانية من زمن طويل، فى العادة هى تعد لهذا الزوج الشقى الذى يعيش عمره يتشم الرمم شيئاً من طعام، وهى رغم شقوتها تطعمه وتسعد به لحظات كما تسعد أى ضبع إلى جوار ضبعها، ولكى تزيد سعادتها فهى تتحرى أن تصنع له

طعاماً يرضيه فهي ميسورة الحال وهي لا تعطيه قط كل ما تجمع ولا نصفه ولا ربعه، وهي تعرف كيف تخبئ المال في جحور أو تحت بلاطات أو في مراتب آمنة كأنها البنوك السويسرية.

والأم الشقية بكثرة العيال لا تموت فيها الأمومة أصلاً، إنها تغسل طفلها وتطعمه وتغير ملابسه.. والطفل ينام منهوك القوى لقد شرب وأكل أيسر ما يؤكل ونام كما ينام كل طفل، بينما تكون الضبع الأخرى مع ضبعها فيما تتصور أنه متاع بفضل القروش التي تدفعها له، وهو كذلك يسعد بما يعطيها من لحظات، ولكنه أسعد بما تعطيه من مال، فهو عاطل حرفته استغلال أولاده، وهو بالنهار على المقهى، منظره يذكرك - من بعيد جداً - بأحلاس مقاهى الشانزلزيه والفيافينيتو وشواطئ بحيرة جنيف أو بحيرة ليمان أولئك المياسير الذين ينامون في أفخم الفنادق وينفقون عن سعة، لأن مورد رزقهم مضمون مأمون.. كله من مال المحسنين.

وفى ساعات الفجر يتقلب الطفل المسكين فى فراشه على الأرض فى البيت المظلم الواقع فى شارع أشد ظلاماً، إنه يتقلب ويصحو ويبكى، وتنهض الأم فتسقيه وتغير خرقة البالية بخرق أخرى وتربت عليه لينام، فعن قريب يطلع النهار وتأتى الضبع لتتقدها القروش وتلفع (المسكين) على كتفها، وتمضى به كالشيطانة إلى قارعة الطريق لتقفز به من الرصيف إلى السيارات إلى الرصيف الآخر.



والذى يعنينى فى هذه الصورة الحزينة هو الطفل المسكين. لأن النساء اللائى مررنا بهن أمرهن معروف، فإنهن نسوان قوارح جامدات الأصداغ بلا حياء، وستحدث بعد قليل عن حاملة الطفل أو حاملات الأطفال متسولات بهم لأنهن فى حقيقة الأمر سبب مأساة هذا الولد

المسكين، وأذكر أن منظر الطفل ألقى يوماً بعد يوم. وفي ذات مرة لقيت إحدى النسوة على الرصيف فقلت لها: إذا كان أمر هذا الطفل يشقك إلى هذا الحد فما يمنعك أن تعطيني إياه. وأنا أمضى به إلى دار حضانة وأتكفل بنفقاته جميعاً، لأنه ليس من العدالة أن تحمل عبئه امرأة فقيرة مثلك غير قادرة على القيام بشئون نفسها فضلاً عن شئون طفل صغير؟.

قالت: أعطيك إياه؟ أنا أمه التى أنجبته كيف أعطيه لرجل غريب؟.

- ستظلين أمه، وسيظل ابنك يا ست، وكل الذى سأفعله هو أننى سأتولى نفقات تربيته تربيةً سالحة، وهناك دور تقوم بهذه المهمة، فأضعه فى واحدة منها وأقوم بكل نفقاته وأنت تظلين أمه، وتزورينه.

- وماذا أقول لأبيه؟.

- أبوه؟ أما تقولين طول النهار أنه يتيم.

- قصدت زوجى وهو ليس أباه.. لا يا سيدى هذا مستحيل فهذا الغلام ابنى ولا أطيق فراقه.

وسمع الشرطى طرفاً من الحديث فأقبل نحونا وقال:

- يا سعادة البية لا تتعب نفسك. هؤلاء نسوة لا يعلم بحالهن إلا الله سبحانه، وهذا الغلام ليس طفلها ولا هى تعرفه، إنما هى تستأجره لتتسول به.

- لا يعنينى أمر هذه المرأة أو غيرها يا حضرة الباش - شاويش، إنما يعنينى أمر الطفل فإن صحته تسوء ومستقبله يضيع، وما هو مصير هذا المسكين الذى تتبادل الأكتاف والأيدى؟.

- الطفل نفسه ليس مشكلة، إنما المشكلة هى مشكلة أولئك النسوة، ففى الحارة التى أسكن فيها عشرات الغلمان مثل هذا، ولا بأس بهم

ولا خوف على مستقبلهم فهم أطفال فقراء يتربون فى أحضان آبائهم وأمهاتهم ويشبون كما يشب غيرهم، ويتعلمون صنعة وقد يذهبون إلى المدرسة، ولكن مستقبلهم لا يضيع على أى حال، ولكن مصيبة هذا الطفل وأمثاله أن أمه بلا قلب، فهى تفرط فيه وتؤجره لمثل هذه المرأة التى تحاول أنت أن تقنعها بأن تعطيك إياه، وأنت لو تحدثت إلى الغد ما أجابتك إلى ما طلبت لأنها ترتزق منه، إنك تحاربها فى رزقها عندما تحاول إنقاذ هذا الطفل من يديها، وكلما كانت نيتك أحسن هى أكثر عناداً.. والله يا سيدى لو أنك قلت لها إنك ستربيه على نفقتك حتى يدخل الجامعة لصرخت وقالت إنك نصاب خطاف أطفال وشهرت بك وتسببت لك فى فضيحة، لأن رأس مالها هو تعاسة هذا الطفل.. أتصدق بالله؟ هذه المرأة وأمثالها أغنياء من وراء أولئك الأطفال، وعندنا فى حارتنا امرأة أثرت واقتنت العقار من وراء مثل هذا الطفل.. إنها غنية ذات مال، فهى تكسب فى اليوم الواحد من الطفل الواحد ما بين خمسة جنيهات وثمانية وربما عشرة ومع ذلك فما زالت إلى يومنا هذا (تسرح) بالأطفال على قوارع الطرق مرة فى الزمالك وأخرى فى الحسين وثالثة فى السيدة زينب، وفى الليل بعد أن تعيد الطفل إلى أمه أو أهله تعود إلى بيتها وتستحم وتترزق وتبقى هانم معتبرة ومبيت ألاج، حاجة من اتنين يا سعادة البية: إما أن يظل الطفل المسكين تعيشاً كما ترى، أو تكون المرأة تعيشة فقيرة، وهى غنية موسرة لأنه تعيش غلبان، فإذا انتهت تعاسته فمن أين تعيش هى عيشة الملوك؟ والله يا سعادة البية، إن لى ولا مؤاخذة ابن عم لا ينجب - بعيداً عنك - وقد حاول كثيراً أن يأخذ طفلاً من أولئك النسوة ليربيه ويتبناه فرفضن جميعاً، بل قالت واحدة منهن له:

- تتبناه وتربيه؟ وأين أهله وذووه؟. أحسبت أن لا أهل له لأنه

فقير؟.

- وماله الفقر؟ عيب؟ وماذا تريد من أنت ايتها الغريبة عنه المدعية الوصاية عليه؟ إنه غلام ذكى موهوب. وسيعينني الله على أن أربيه وأعلمه وأدخله الجامعة نعم، الجامعة! ولماذا لا يدخل الجامعة؟ هل الذين يدخلون الجامعة أحسن منه؟.

- دع غلامنا لنا ونحن نربيه وابتعد أنت عنا وإلا خربنا بيتك.

ومضى الشاويش يقول: هذا ما أصاب أخى يا سيدى وكان يريد للطفل أكثر مما أردت أنت، كان يريد أن يتبناه وصبح أباه ويتولى شؤنه كلها حتى يشب ويضرب فى الحياة كغيره من الأولاد، فتجنى هذه القارحة وتزعم أنها أمه وأنها هى التى ستربيه ولا ترضى له إلا بالجامعة!

وكانت المرأة قد هربت بالطفل، وفى طريقى إلى البيت هتف فى نفسى هاتف، هذا الطفل أنا أعرفه.. إننى أعرف مأساته بل لأعيشها فعلاً فهى إلى حد ما مأساتى أنا أيضاً.. وهذا المشهد الذى رواه الشاويش سبق لى أن شهدت مثله.. أين يا ترى؟ وعلى باب بيتى جاء الرد:

المشهد رأيته فى أحد أروقة هيئة الأمم فى نيويورك.. كنت ملحقاً بوفد بلادى فى إحدى دورات هيئة الأمم. وكالعادة كانت قضية فلسطين على الأجندة، وستظل على الأجندة فيما أعتقد زماناً طويلاً. وكنت أتصفح الأوراق فى أحد الاورقة وترامت إلى سمعى أطراف حديث من منضدة مجاورة واستولت هذه الأطراف من الحديث على سمعى، وإذا بواحد من المتحدثين يقول:

- والله يا جماعة إن المشروع الذى تتقدم به الدولة الفلانية لا بأس به، إن قضية فلسطين قد طالمت وتعقدت، وكما تعقدت على مراحل فإن حلها لا يكون إلا على مراحل. وخطوة خطوة ومع مرور الزمن قد

تنحل المشاكل واحدة بعد أخرى. وفي يوم من الأيام لابد أن تنحل كلها ويستعيد شعب فلسطين حريته وأرضه ويسير في طريقه.

ورد عليه زميل له في صوت حاد عصبى:

- أولاً وقبل كل شيء قضية فلسطين هذه قضيتنا نحن.. نحن أهلها وأصحابها وممثلوها ولا ممثل لها غيرنا.. وأيا كان الحل المقدم فهو مرفوض لأنه بالذات لم يأت منا، ما هي الحكاية نحن أحياء ويتكلم غيرنا في شأن فلسطين؟.

- ولكنك يا أبا فلان تقول إن فلسطين قضية عربية.

- لا يا أبا علان، أنا لم أقل ذلك ولا يمكن أن أقوله، إن قضية فلسطين قضيتنا نحن بالأمومة والأبوة.. ولكنها قضية عربية بالمعونة والمساعدة.. من يريد أن يعطى من يريد أن يتكرم فليعطنا نحن، ونحن نتصرف، نحن رجال أشداء وقدها وقود. نحن نعرف القضية ولا أحد غيرنا يعرفها، نحن وحدنا نمثل القضية في الأرض المحتلة وخارج الأرض المحتلة، نحن نشترى السلاح ونتدرب ونضحى ويريد صاحب هذا المشروع أن يحرمنا ثمرات تضحياتنا؟ نحن وحدنا سنصل بفلسطين إلى الاستقلال الكامل، نحن سنحرر الأرض كلها ولهذا فنحن لا نقبل التهاون أو التفريط وكل فكرة لا تأتي منا فهي فى انهزامية استسلامية.. ما شاء الله!..

نحن نضحى وهم يفوزون بالتمر!..

ونظرت إلى الجماعة لأرى هذا المعصوب المتحمس أتقرى فى هيئة آثار التضحية التى يتكلم عنها فرأيت شاباً أنيقاً يلبس بدلة من أئمن وأغلى ما عرفت وعليه قميص يقول لك من بعيد إنه تفصيل من صنعه بيير كاردان دون سواه، والحذاء جلد كأنه الحرير يتلألأ ويشع ويضىء،

وربطة الرقبة كما يقولون فى الحكايات (خيط لولى وخيط زمرد) والشعر جميل مسبب فى صالون الفندق وفى اليد ساعة ديجيتال من ذهب ذى بريق، وفى اليد خاتم له فص كأنه الكوهى نور، وأمامه (شنطة) جلد ليزار وهى السحلية الفرنسية أو السويسرية التى يسمونها سلامندر.

واستحييت من نفسى أنا الذى لا أضحى ولا أتحدث عن بطولة قط، فهذى بدلتى الغليانة التى يرجع عمرها إلى أوائل سنواتى فى مدريد، صنعة ترزى الغلابة فى شارع فوينكارال وقميصى يا حول الله - اشتريته بسبعة دولارات أو ثمانية من متجر صغير فى شارع الفندق ورباط الرقبة قطعة قماش أسود، فقد كان ذلك بعد نكبة ١٩٦٧م ومن يومها إلى نصر أكتوبر لم أنزع الحداد، ثم عدت ألبسه بقدر من الله فى يوليو ١٩٨٠م.

وقالت نفسى لنفسى.

- إن معلوماتك فى حاجة إلى تصحيح، فإن التضحية كما أراها الآن تختلف عما كنت تقول لى وتزعم! انظر وتأمل التضحية ورمزها لتصحح معلوماتك. إنها هكذا بالضبط كما تراها بعينيك هذا معناها فى قاموس العرب الحديث صنعة الأب المارونى اليسوعى المملوف. مملوف بماذا؟ لا أدرى ولكنه هكذا مملوف! أما المعانى التى تضحك بها على وتقول إنها من لسان العرب لابن منظور أو من تاج العروس للمرتضى الزبيدى فكلام قديم انتهى أمره وفات.

وبينما الحوار يشتد وصاحبنا المسحفر المستعصب يكاد ينفجر من فرط الحماسة وحرارة التضحية جاء قوم عليهم سيما وجهاء العرب وجلسوا إلى منضدة قريبة ونظرت إليهم فرأيت علائم الأصل والشرف والحسب والنسب، وجلسوا يتحدثون فى أدب وتواضع وصوت

خفيض.. ولمحهم المسحنفر المستعصب فما أسرع مازال غضبه وانفجرت أساريه ورق وهش وبش ونهض إلى أهل الأدب والحسب والمال والحياء فحياهم بتحية الملوك واستأذن فى أن يجلس فأذنوا له ، ومضى يتحدث فى ظرف ولياقة ويخرج أوراقاً من حافظته ويدخل أزرقاً وهو لا ينفك بنظر إلى الوجوه الوسيمة التى يتحدث إليها حتى إذا هز رئيسهم أو كبيرهم رأسه بالايجاب وأذن لابتسامة الرضا أن ترتسم على محياه فارتسمت ، انتقلت البسمة إلى الوجه الذى كان منذ حين غاضباً ينفث الشرر، وزاد الرضا فزادت الابتسامة وأصبحت من الأذن إلى الأذن ، ولا أدرى ماذا قال ولا ما قيل له ، ولكنه عاد بعد قليل إلى أصحابه وقد انصرفت جماعة الحسب والشرف والمال، عاد سعيداً مشرق الوجه وأغلق حافظته من جلد الليزار - وهو بالسويسرية - السلاماندر كما قلت لك - وأخرج منديل العافية ومضى يمسح عرق الجهاد وسمعته يقول لأصحابه :

- لقد تعبنا وسئمنا يا جماعة.. ما رأيكم فى (درنك) عند (أولد جيمى) ثم نتعشى فى روف السفن ستارز؟.

ومضوا ونظرت فى ساعتى ، كانت السادسة والنصف ، كانت الجلسة فى قاعة الجمعية العامة قد بدأت من لحظات فمضيت أهول إليها . وخطرت ببالي وأنا أشد فى خطوى صورة المرأة القارحة الرابضة على ناصية الشارع بالطفل الغلبان على كتفها وهى تقفز كالشيطانة من الرصيف إلى السيارات التى وقفت فى انتظار إشارة المرور الخضراء ، ما أجمل النور الأخضر! إنه يفتح لك الطريق ويبعث ابتسامة الرضا على الوجه الوسيم ذى الحسب والمال. وبأذن لصاحبنا المضحى بأن يتناول (الدرينكس) عند أولد جيمى والعشاء فى روف السفن ستارز.

والشاويش الطيب كان على حق فى كل كلمة قالها.

وعم عطية بائع الخيار الوحيد الذى رحم الطفل وسقاه وأطعمه وبدل له ثيابه ، هذا لن يذكره أحد ، إنه مثلى ومثل قواميسى البالية صنعه

ابن منظور ومرضى الزبيدي كلنا أشياء قديمة باليه واين نحن من المعانى الحديثة التى يتضمنها قاموس المعلوف. معلوف بماذا؟ لا أدرى، ولكنه هكذا: معلوف.

والطفل؟ هل يظل هكذا أبداً عليلاً على الكتف؟ هل قضى عليه بأن يكون وسيلة للتسول؟ يبدو ذلك فى رأى هذه الطائفة من المتحمسين للمجاهدين عند أولد جيمى والشقق الفاخرة فى جنيف ونيس. وليس هذا هو أسوأ ما ينتظر الغلام لأن من الممكن جداً أن يعتاد المسكين هذه الحياة التعيسة ويصبح أسيرها، يصبح طفلاً ثم إنساناً معوقاً، لأنه من المعروف أن الكثيرين من الأولاد أصبحوا معوقين لأن أهلهم أرادوا لهم ذلك: أسرفوا فى الإساءة إليهم وإهمالهم حتى تعطلت ملكاتهم وتلاشى طموحهم واستمروا حياة الضياع، مثل هذا التعميق يحدث لنوع آخر من المعاملة هو الإسراف فى التدليل، عندما يقضى الوالدان للطفل كل حاجة ويلبىان له كل نزوة، أحياناً يستمرئ الطفل ذلك ويكره العمل والواجب والمسئولية. ويشب شليل الذهن والإرادة، يشب معوقاً.

بالفعل هناك دلائل على أن أولئك المجاهدين يرمون بالفعل إلى تحويل الطفل إلى إنسان معوق، لأنهم يصرون دائماً على أن يحملوه على الكتف ويربتون على ظهره قائلين: لا عليك يا بنى نحن سنجيثك بالاستقلال اتبعنا لا تستمع إلى غيرنا، نحن وحدنا المتحدثون باسمك، سنصل بك إلى ما تريد، استمر أنت فى البكاء ونستمر نحن فى الجهاد، والبكاء عندهم هو تلك القنابل التى توضع فلا الأسواق ومحطات الحافلات فلا بعض نواحي الأرض المحتلة يضعها من يضعونها ثم يولون هاربين، وقد تنفجر وقد لا تنفجر، ولكن الإسرائيليين يصلون إلى الفاعل فى كل حين. وبدلاً من أن يهلك كذا إسرائيلياً يهلك أضعافهم من العرب. وفى كل حالة يتردد صوت

المجاهدين من الخارج: نحن نعلن مسئوليتنا عن الحادث الفلانى استمروا أنتم تجاهدون من ناحيتكم ونحن من ناحيتنا، أنتم فى الداخل تعملون فى ظل الخوف والرعب والانتقام الرهيب. ونحن فى الخارج فى باريس ولندن وجنيف وروما ونيويورك.. المهم هو الثبات.. سننتظر ولن نكل أبداً من الجهاد فى لأروقة هيئة الأمم.. لن نكل عن إلقاء الخطب والبيانات لقد انتصرنا بالأمس انتصاراً تاريخياً، أصبح لمكتبنا فى فينا وضع السفارات وأخوكم المجاهد أبو فلان أصبح سفيراً، تصوروا. سفير بكل شارات السفراء، الكاديلاك السوداء والراية ترفرف فى المقدمة، هل بعد هذا نصر! لقد اقتربنا من الهدف سيروا فى طريقكم ونحن فى طريقنا سائرون.

هذا والإسرائيليون بعد أن ضموا الجولان يستعدون الآن للضربة التالية، والمرأة الرهيبة جوثيلا كوهين توسوس فى أذن مناحم بيجين الذى لا تنطقى فى قلبه جذوة الحقد على البشر وإذلال الإنسانية كلها. عقاباً لها على ما يزعم أنها صنعتها بشعب الله المختار.

واللعبة يا سيدى سهلة ومريحة جداً، لعبة حمل الطفل والتسول به، ومادامت المرأة تزعم أنها أم الطفل، تكسب من ورائه ما تشاء، فلماذا لا تحمله أيضاً أخواتها وبنات عمها من المجاهدات. نعم، وفى وقت ما نشأت جماعات الجهاد التى ترفض كل شىء وتحرص على أن يظل الغلام عيلاً على الكتف إلى الأبد، ومادام هناك محسنون يعطون، ومادامت هناك سيارات تقف عند الإشارة الحمراء فهناك عشر نسوان بالملاية اللف يقفزن من سيارة لسيارة وكل منهن تشحذ لحساب الطفل الذى تلقيه على كتفها وركاب السيارات عندهم فلوس وهم يعطون ويعطون، وقام اتفاق (جنتل - من) بين المتسولات، كلهن يتسولن باسم غلام يتيم مسكين واحد، لم يعد أحد يهتم بالنظر فى وجه الغلام، إن

المحسنين ينظرون فقد إلى الأيدي الممتدة أمامهم ويعطون ليستمر الجهاد.

وهل تحسنت حال الطفل شعرة؟ بالعكس هو فى كل يوم أسوأ. وحكومة المحتل الطاغية يسرها أن يكون هذا هو كل الجهاد الذى يواجهها، ولهذا فهى تمضى فى طريقها دون خوف ودون حياة، بالأمس ضمت القدس العربية واليوم ضمت الجولان وغدًا سيكون ما هو أسوأ، لأن قناع التذلل والمسكنة قد سقط من على وجه إسرائيل، والحياة التى أدهاها الرجل الطيب فى يوم من الأيام رفعت الآن رأسها لتنهشه، وهو يستحق، فقد كان يعلم دائمًا أنها حياة، ولكنه لم يكن ليكتثر مادامت تنهش غيره: نهشت إنجلترا، وهى الحياة التى أدفأت حياة أخرى فلقيت جزاءها، ونهشت ألمانيا وفرنسا وكل أوروبا، والآن ذهبت فى الجرأة إلى مداها وها هى ذى رافعة الرأس لتنهش الولايات المتحدة نفسها، الولايات المتحدة تستحق، فإن الحياة حياة والسسم سم، ومادام قد سرى فى أجساد الآخرين فلماذا لا يسرى فى دمها هى الأخرى؟.

وراكب السيارة الأصيل الموسر الحسيب لماذا يعطى؟.

إنه يعطى لأنه رجل طيب محترم وعنده مال وضمير، كانوا يقولون له: ادفع ونحن نجاهد، هات المال ولا تحاسب، ادفع ولك الجنة.

إنه يرضى ضميره ويستريح من مشكلة تثقل على صدره، وما دام للقضية أهلها، وماداموا يقولون له إن هذا كل المطلوب منه فليكن ما يريدون، ولكنه مل هذا الدور مع الزمن.

إنه يرى أن حالة الطفل تسوء وهذا النوع من الجهاد لن يؤتى ثمرة أبدًا، وفى ذات مرة عندما امتدت إليه اليد فتح باب السيارة وخرج وقال: هذا الطفل يموت شيئًا فشيئًا بين أيديكن.. هاتوا الطفل أعالجه معكن.

وقالت إحدى القارحات: بكل سرور تفضل وعالجه معنا.. ما هي وصفتك؟.

هذه هي وصفتي.. لقد وضعتها بعد طول تفكير في أمر الطفل وفي أمورنا كلها. الطفل يموت شيئاً فشيئاً ولا بد من إنقاذه..

وقرأت المتسولات الوصفة وقلن: عظيم.. هذه الوصفة هي الترياق، ونحن نؤيدها ونشترك معك فيها.. والموعد في فاس.

واشتورت النسوان فيما بين بعضهن وبعض: ما الذى حدث فى الدنيا السيد المحسن الكبير سياخذ الطفل منا ليعالجه، وكيف نعيش إذن. ومن أين لنا المال؟ وعاد إلى ذهني مشهد حديثي مع المرأة عندما عرضت عليها أن تدع لي الغلام أرعاه، وعاد إلى ذهني كذلك حديث الشاويش: المشكلة يا سعادة البيه ليست مشكلة الطفل، إنها مشكلة النسوان، إنك تحاربهن فى أرزاقهن عندما تحاول إنقاذ الطفل من أيديهن، وكلما كانت نيتك أحسن كن معك أكثر عناداً ووقاحة، والله يا سيدى لو أنك قلت لها إنك ستربيه على نفقتك حتى يدخل الجامعة لقاتل إنك نصاب خطاف أطفال. ولشهرت بك، وتسببت لك فى فضيحة، لأن رأس مالهن هو تعاسة الطفل.

عاد إلى ذهني هذا كله، لأنه هو الذى وقع فى فاس ووقع فى القمة، على سمع الدنيا كلها وبصرها.

ولم تعرف النسوة للرجل الطيب أى توفير.

وكل ما كان تحت الملاية اللف أصبح خارجها.

وعاد الرجل إلى بيته أسفاً.

وعقب ذلك بقليل ولأن الإسرائيلي كان يعرف ما تحت الملاية اللف قبل أن يتكشف جرؤ على محاولة ضم الجولان.. هنا راحت السكرة وجاءت الفكرة.

لقد انكشف الغطاء، عرفت الدنيا كلها أن الطفل العليل الحقيقي ليس هو الذى على أكتاف المتسولات ولكنه فى أسر إسرائيل. وهى تريد هلاكه، لم يعد فى ذلك شك، وعندما قال لها الشرطى الأمريكى الذى طالما حماها. إياك أن تقتلى الغلام. رفعت رأسها لتنهشه.



هل انتهى سوق المتسولات؟ أرجو ذلك لأن الذى يحتاج إليه الطفل هو أن يرتاح كما يرتاح الأطفال. ويعامل بحب ورفق كما ينبغى أن يعامل الأطفال لكى يشب ويكبر ويصبح شاباً ثم رجلاً سوياً.. إنه يحتاج إلى عم عطية بائع الخيار الطيب الذى أخذ الطفل ساعة من نهار فسقاه وغير ملابسه وابتسم فى وجهه واشترى له البسكويت، لو عاملوا كلهم الطفل كما عامله العم عطية لانتهدت مشكلته لأنه طفل سوى ولا مرض فيه، بل هو طفل موهوب، كل ما يحتاج إليه هو أن يعامل بإحسان وأبوة حتى يشتد عوده، حتى يقف على أول طريق الحياة، على أول طريق الاستقلال. وهو وحده بعيداً عن المتسولات - سيعرف كيف يسترد حقوقه كاملة، بذراعه وحدها سيصل إلى ما يريد إذا تركته المتسولات. إذا فارق بلا رجعة الكتف الحجرية التى يموت عليها شيئاً فشيئاً يوماً بعد يوم.. إذا كتب له ذلك وقف على أول طريق النجاة، أتدرى كيف؟.

الطريق واضح وإن كان عسيراً.

لقد خاضته من قبل هذا الطفل أمم كثيرة، ونجحت وسارت فى طريقها، وقليل جداً من أمم الأرض لم تعرف الاحتلال والغصب والعدوان.

وما سيفعله الفلسطينى عندما يدرج على الأرض وحده. ويحمل على كتفه البندقية هو ما فعلته كل الأمم التى ابتليت بالاستعمار ثم تخلصت منه.. والذى فعلته هذه الأمم يقوم على قواعد بسيطة وواضحة..

أولها أنك إذا أردت أن تسترد حريتك فلا بد أن تستردها أنت بنفسك أنت وحدك. قد يساعدك الآخرون، ولكنك ستخوض معركتك بمساعدتهم وبغيرها، أن المعركة معركتك والأرض أرضك. وليس هناك إنسان يموت ليكسب أرض غيره.

من يريد أن يعطى فليعطك أنت، وأنت وحدك الذى ستقاتل، ولن تستعمل أرض غيرك. إن غيرك أضن بوطنه من أن يعرض سلامته من أجلك، كلهم يخدعونك، إذا قالوا لك غير ذلك. لن تخوض معركتك من سوريا أو من لبنان أو من الأردن.. لا أحد يقوم على أحراق داره لكى ينقذ دار الجار، لقد جربها عبد الناصر سنة ١٩٦٧م فاحترق واحترقت داره، إن أرض الله واسعة، وبلادنا كلها صحار، تستطيع أن تتدرب حيث تشاء، تستطيع أن تأخذ من السلاح ما تشاء.

أما من أين ستدخل إسرائيل وكيف ستدخل إسرائيل فهذا شأنك أنت.. إنه سر من أسرارك لا يصح أن يعلمه أحد غيرك، إنك لن تستأذن من سوريا لتدخل أرض المعركة من ناحيتها، لأنها لن تسمح لك بل تستخدمك لصالحها هي، إنها لن تأذن لك قط فى الدخول من أرضها، لا تقع فى الخطأ مرة أخرى، ولا تدع المتسولة تحملك على كتفها لترتزق من ورائك.

إن حدود إسرائيل واسعة جداً ولن يصعب عليك الدخول من أى مكان تريد، ومادامت قد دخلت دون أن تستأذن أحداً فإن إسرائيل لن تقتص من أحد، لأنها لن تعلم من أين دخلت، وإذا هى علمت فهى ستعرف أنك دخلت على رغم الجار. وإذا كانت هى قد عجزت عن أن تمنعك من الدخول فكيف تعاقب غيرها لعجزه عن منعك من الخروج.. المهم أن تنقل المعركة إلى داخل إسرائيل.

وسبيل ذلك واضح، وهو أنك دخلت للقتال فهو دخول بلا عودة، إنه دخول للموت.. من العيب أن تدخل لتضرب ثم تهرب، لأنهم

سيتابعونك إلى أى بلد تذهب إليه ، وهناك فلسطينى ضرب وهرب حتى دخل الولايات المتحدة فقبضوا عليه هناك وأخذوه ليعاقبوه.

مادمت اتخذت قرار الجهاد فليكن هو قرار الموت.. ولا تؤمل فى النجاة قط، إذا فكرت فى النجاة فلن تضرب ولن تنجو.

ليدخل منكم إسرائيل عشرة ليموتوا. لو قتل العشرة خمسة إسرائيليين ثم استشهدوا، فإن النصر فى النهاية مضمون، فليست هناك دولة تحتل طويلاً الحرب من الداخل.. أنها سم قاتل: جرام منه يقتل الفيل.. المهم كما قلت لك أن تنقل المعركة كلها إلى داخل إسرائيل، وأن يكون الجهاد جهاد موت، المجاهدون الذين ساروا على طريقة (اضرب واهرب) تبينوا أنهم ليسوا مجاهدين، وقد عاملهم العدو معاملة مجرمين، كل الدنيا تعاملهم معاملة مجرمين، وإنجلترا رفضت أن تعتبر مقاتلى الجيش الأيرلندى مقاتلين ماداموا يضربون ويهربون فإنهم ليسوا مجاهدين، وعندما اضربوا عن الطعام إلى الموت وماتوا فعلاً لم تغير إنجلترا موقفها، وكلنا نعرف حكاية بوبى ساندرز وأصحابه.

ذلك هو الطريق الوحيد أيها الأخ الفلسطينى، وكل طريق أخرى لن تؤدى بك إلا إلى مزيد من التعاسة لا تسمح لمتسولة قط بأن تحملك على كتفها لتتسول بك، لا تطالب لأحدًا بأن يعرض بلده للنار من أجلك.. ولا يخذعك كلام فى الأمم المتحدة، ولا مجاهدون يتحدثون باسمك من غرف فنادق الدرجة الأولى.

ومن يريد أن يجاهد لا يتناول الدرينكس عند أولد جيمى أو يتعشى بعد ذلك فى مطعم السفن ستارز.

إن المجاهدين هم الذين يقاتلون داخل الأرض نفسها. خارجها ليس هناك جهاد، هناك تسول، هناك خداع، هناك مزيد من التعاسة، أما الجهاد فلا يكون إلا داخل الأرض.. إنك خارج الأرض فقط حتى تتعلم

كيف تستعمل السلاح، مادام السلاح معك ومادامت تعرف كيف تستعمله فلا ينبغي أن يعلم أحد قط ما تنوى أن تفعله، ستدخل أرض عدوك ستملاً بالرعب قلب عدوك. ستموت برصاص عدوك.

وسيموت بعدك آخرون مثلك وآخرون، وإسرائيل لن تعرف يومها ممن تنتقم، بل لن تعرف من تتهم، ستعرف إسرائيل يومها أنك نذلها، إنك تستطيع أن تقتلها وستسعى هي يومها لكي تتكلم معك.

ويومها ستقرر أنت وحدك لا أنت وغيرك.. ستقرر في ظلام مخبئتك لا في قمة بغداد أو فاس ماذا تفعل.

لن تحتاج بعدها يا بنى إلى قمم لأنك أنت ستصبح القمة.. وسل إخوانك الجزائريين الذين قاموا بمعركتهم قبلك، وسلنا نحن فقد خضنا معركتنا مع الإنجليز من قلب بلادنا، يومها يا بنى لم نطلب معاونة من العالم العربى.

لأن العالم العربى نفسه لم يكن موجوداً.. أو لو يكن قد وعى أنه موجود.

(٦)

فيران وناس*

فى بحثنا عن أسباب جائحة الفيران اتهمنا كل شىء من نقص المبيدات إلى نقص طمى النيل. ولكننا لم نذكر السبب الرئيسى لأننا لا نجرؤ على مواجهة أنفسنا به وهو القذارة.

فنحن صراحة شعب لا يحس بالنظافة ولا نتأذى بالقذارة، والواحد منا يشتري أفخر السيارات ويوقفها بين أكوام الزبالة ويتهم الآخرين، وفى أكوام القمامة تتربى الفيران، والريف عندنا مقلب زبالة هائل، والناس هناك تعودوا على أن يقاسموا الفيران جحورها، وقد تتحقق مكافحة الفيران بفوسفيد الزنك أو بالراكومين. ولكنها تكون أولاً بالمكنسة وعربة القمامة والماء والصابون. والفيران لا تعيش قط فى مكان نظيف، ولا يحق لنا بحال أن نشكو الفيران لأن البيئة التى أنشأناها بانعدام إحساسنا بالقذارة هى بيئة فيران. ونحن فى الحقيقة نزاحمهم فى رزقهم لأننا ارتضينا لأنفسنا أن نعيش فى البيئة التى لا يعيش فيها إلا الفيران.

كل الذين يمارسون الفن فى إخلاص يعيشون فى وحدة دائمة. إنهم وحدهم مع الناس ووحدهم بعيداً عن الناس يحبون الناس ولكن من بعيد يخدمون الناس وكأن الواحد منهم متبرع يعطى ويتستر تحت اسم «فاعل خير» ومن غرائب أقوال جيته أنه سئل: هل تشعر بالوحدة؟ أجاب: نعم عندما أكون من الناس وكان لودفيج فإن بيتهوفن يقضى بعد الظهر وحده فى مقهى صغير فى قريته وكان الناس يرونه فى ركنه جهم الوجه صامتاً فيحسبون أنه فى حاجة إلى من يؤنسه ويقحمون أنفسهم عليه، فكان يقول: تريدون أن تؤنسونى؟ فابتعدوا عنى إذن..

* نشرت هذه المقالة فى ٥ سبتمبر ١٩٨٢ م.

هكذا آنس بكم أكثر. وكان أبو العلاء المعرى أعظم «إنسان» فى تاريخ الحضارة العربية ولكى يحتفظ بإنسانيته صافية فرض على نفسه وحدتين: واحدة داخل الأخرى فلزم كسر بيته وأنس بالظلام. ومن الظلام أخرج النور. وكان المتنبى أشعر من أبى العلاء ولكنه أنفق عبقريته على عتبات حكّام لا يساوى أى واحد منهم بيتاً من شعره، ولكن أبا الطيب أذل شعره وباع فنه بالثمن الرخيص. ولهذا فإن لشعره فى الأذن دويلاً وفى السمع حلاوة ولكن وقع فى القلب مريز.

ومن بين أدباء الغرب المعاصرين أفضل جون شتاينبك لأنه أنشأ فى وحدته عالماً كاملاً دافق الحيوية. ووحده شق طريقه بالجهد والإخلاص والصمت، ووقع فى قرينه «ساليناس» يكتب منها ويراسل الناشرين، وعندما قفز بروايته البديعة: شقة تورينا أو تورينا فلات إلى الصدارة. وتوالت عليه الدعوات والتكريمات. كتب إلى ناشره يقول: إن كنت تقدرنى حقاً فاحمنى من هذا البريق الذى يجعلنى أكره الناس. وأنت تعرف أننى أحب الناس لأننى بعيد عنهم، ومن سطوره المضيئة فى روايته «ثم غاب القمر» وقد نقلتها إلى العربية قول امرأة واحد من ضحايا الحرب الذين قتلهم الألمان إننى وحيدة جداً من بعده والوحدة تقتلنى! ويرد عليها العمدة قائلاً: إذن فأنت لم تكونى تحبين زوجك، إذا كنت وحدك فأنت تعيشين معه ومادمت تعيشين معه فهو حتى لم يموت.. فلماذا تريدين قتله؟.

ومن روايات شتاينيك البديعة رواية صغيرة لا أزال أعود إليها طلباً للأنس وبين الحين والحين اسمها «عن الفيران والناس» وليس فى الرواية فيران لأن الناس فى أمريكا لا يأذنون للفيران بأن تكون بطلة رواية أو شخصية الموسم لأنهم فى نظر أنفسهم أعظم من الفيران، والفيران لا يعظم شأنها إلا إذا تفوقت على الناس، وأثبتت أنها أقوى وأصلح للبقاء منهم.. هذا هو لباب مأساتنا اليوم مع الفيران، لقد أثبتت

أنها أقوى منا وأصلح للبقاء. وهذه الدنيا ميدان صراع بين الأحياء. والبقاء للأقوى. لأن الله خلق الفأر كما خلق ابن آدم. فأما الفأر فقد نظم حياته وخاض معركته وغلبنا فلماذا نشكو؟ إن ذلك يذكرني بكلمة قالها رجل من بناة الزراعة المصرية فى الجيل قبل الماضى وهو محمود باشا شكرى وقد عملت معه شهوراً فى مطلع حياتى. فكنت أراه يركب حماراً من الفجر ومن ورائه ناظر الزراعة والخولىة ويقف عند شجرة شجرة فإذا رأى شجرة جوافة أكلت الفيران من ثمرها قال لناظر الزراعة ما هذا يا ناظر التناكلة؟ ويبدأ حضرة الناظر يقسم بالأبالسة مبرئاً نفسه فيقول الباشا: أنت هنا وكل رجالك لتحارب الفيران ودودة القطن وكل الآفات. فكل ما تأكله محسوب عليك: مخصوم منك خمسون قرشاً! وشجرة بعد شجرة يستهلك الخصم راتب الرجل فيقول: وبعدين؟ من أين سأكل أنا وأولادى يا سعادة الباشا؟ ويرد الباشا: من الفيران! لو أنك ناظر زراعة جدع لما أكلت الفيران رزقك، اعرف خلاصك. ماذا أعمل لكم وأنتم تشكون من كل شىء حتى البراغيث تشكون منها مع أننى قلت لكم ألف مرة إن البرغوث لا يعيش فى بيت نظيف؟ ماذا تريدون؟ أن أنظف لكم بيوتكم؟ أن أحمى لكم أولادكم.. أن أغسل لكم ثيابكم؟ كفاية عليكم الشاى والمعسل وأحضان نسوانكم يا ناظر البلاوى. هذه الفيران أنتم تربونها بالكسل والإهمال وهل كان من الممكن أن يعيش فى هذا الغيط فأر إذا كنت أنت ورجالك تدورون على الأشجار والزراعات يوماً بعد يوم كما أفعل!

وقبل أن أنسى أقولك إن رواية «عن الفيران والناس تدور حول إنسانين متناقضين فرضت عليهما ظروف الحياة أن يعيشا معاً وقد أبغض كل منهما الآخر وصار ينظر إليه وكأنه فأر يعيش معه فى البيت والفأر عجيب من هذه الناحية. فهو يعيش معك فى بيتك ويشاركك عيشتك وطعامك ولكنه لا يريد أن ينشئ معك أى علاقة، فلا يكاد

يسمع حسك حتى يختفى فإذا سكت حسك وهدأت حركتك خرج يمارس حياته فهو يعيش معك ومنك وعليك ولكنه يرفضك ، لأنه لو قبلك فلا مفر له من أن يسمح لك بالتحكم فى حياته . كما فعلت مع القط والكلب ، فالقط أيضاً حيوان طفيلى مثله فى ذلك مثل الفأر ولكنه تعايش معك وأنشأ معك ألفة وصدقة ، وهذه الألفة جعلتك تتحكم فيه فأنت تكره القطط الإناءك وتعدمها لأنها تتكاثر ، وأنت تفضل القط الذكر لأنه لا ينجب بل أنت قد تعقمه بعملية جراحية حتى يعيش لك وحدك وهذا ثمن التعايش الذى قبله القط ، أما الكلب فقد تحكمننا فى حياته حتى صنعنا أصنافاً من الكلاب تطابق مطالبنا فهناك كلاب للسيدات لا تصلح إلا للجلوس على الحجر ، ولم يبق لها من خصائص الكلبية إلا الاسم . وهناك كلاب سباق دربناها على أن تجرى وراء أرنب آلى وهى تأكله . وهناك كلاب سباق دربناها على أن تجرى وراء أرنب آلى وهى تعرف أنه ليس بأرنب أصلاً ، ولكننا أفسدنا طبيعتها وتحكمننا فيها بحسب أهوائنا .

هذا كله رفضه الفأر: رفض التعايش معنا والتفاهم مع جنسنا حتى يحتفظ بشخصيته فأراً محترماً ، حتى الطعام الذى تضعه فى الأركان لا يأكله لأنه يعلم أننا لا نعمل شيئاً إلا حسب مزاجنا وإذا كان مزاجنا أن نضع فى هذا الطعام سمّاً وضعنا السم لهذا فهو يرفضه أصلاً ، ويفضل عليه الطعام الذى يسرقه رغم أنوفنا فهذا قطعاً ليس فيه سم .

والإنسانان اللذان يعيشان معا فى رواية شتاينبك ينظر أحدهما إلى الآخر نظرته إلى الفأر . وأنت لا تعرف من منهما الإنسان ومن منهما الفأر ، وهذا بدوره يأذن لنا فى أن ننظر إلى مشكلة الفيران من وجهة نظرها هى ، فإن الفأر لا بد أنه يظن أنه هو الأصيل ونحن الطفيليون ، وإذا كان الله قد خلق الأرض للأحياء جميعاً فلماذا يريد الإنسان أن ينفرد وحده بالحياة ؟ وإذا كانت هناك شجرة جوافة فلماذا يبيع

الإنسان لنفسه أن يأكل منها ويحرم ذلك على الفأر ؟ ولماذا يريد الإنسان أن يعيش أولاده جميعاً ويموت أولاد الفأر جميعاً ؟

وإذا كان الإنسان يريد لها معركة بقاء بينه وبين الفيران فقد قبل الفأر المعركة وخاضها بسلاحه ، وللفأر سلاحان هما أمضى من كل سلاح ، الأول حيوية عجيبة تتحدى كل صنوف الموت ، ثم قدرة على الإنجاب رهيبه حقاً فإننا إذا أعدمنا ٨٠٪ من فيران هذه السنة فإن العشرين في المائة الباقية تبذل أقصى جهدها لتكون مائة في أول السنة القادمة والفأرة الواحدة تستطيع أن تلد في العام ثمانين فأراً.

وما رأيك في مخلوق يأخذونه ويصبون في حلقة سما ثم يلقون به في التواليت ويشدون السيوف وتمضى به المياه المتدفقة، من مأسورة لأنبوب ومن أنبوب لمأسورة مسافة تسعة كيلو مترات ويخرج بعدها الفأر الشرير حطيماً، فلا يكاد يستقر على الأرض دقيقة حتى ينتعش وينهض ليلتهم وينهش ويقضم ليعوض ما فات، وقد غسلت مياه المجارى التي مرّ فيها أمعاه وكتبت له النجاة من السم.

وهذه هي النقطة التي أريد أن أصل إليها فيما يتعلق بموقفنا نحن المصريين من الحياة، إننا ننسى دائماً أنها معركة بقاء أو موت مع الفيران أو مع الطاعون أو مع إسرائيل أو مع الإنجليز أو الأتراك، فهي دائماً معركة والفوز للأقوى، وكل أعدائنا الذين دخلنا معهم في صراع أخذوا الصراع جدّاً فكسبوا وخسرنا، ومعركتنا مع إسرائيل لم نأخذها جدّاً إلا مرة واحدة. كان ذلك في أكتوبر ١٩٧٣م وعندما أخذناها جدّاً انتصرنا، لقد حططنا لإسرائيل ٤٠ طائرة منها ١٩ فانتوم في يومين، في ستة أيام حططنا لها ٤٠٠ دبابة، يومها زلزلت أقدام إسرائيل وشعرت أن المصريين رجال وليسوا فيرانا، يومها بكى موسى ديان وركع سفير إسرائيل في واشنطن تحت قدمي كيسنجر، وللمرة الأولى شعرت الولايات المتحدة أن هنا على ضفاف النيل أمة صحت بعد نوم

طويل. وكل قوة أمريكا وضعت يومها لكي تقف معنا لأن الدنيا تحب المنتصرين، ووزير خارجية أمريكا هنري كيسنجر طار إلى بلادنا لكي يتفاهم مع الرجال، كان أنور السادات على القيادة إذ ذاك، وتلك تحية.. متواضعة له، والرجل المنتصر يومها كان يعرف أن النصر لا بد أن تعقبه مفاوضات لكي يأخذ المنتصر حقه، وصراع الأمم حرب ومفاوضات.. حرب وسياسة، وإلى ذلك الحين كان العرب يأخذون في صراعهم مع إسرائيل طريقاً شاذة لا هي حرب ولا هي سياسة إنها طريقة الهروب من المعارك ومن السياسة معاً. كنا نسميها باللاسلم واللاحرب وهي عبارة ليست من لغة البشر. إنها من لغة الفيران لأن الفأر لا يقاتل أبداً إنه يحارب الفناء بالهرب ودخول الجحور والإنجاب، والذين رفضوا الجلوس إلى مائدة المفاوضات وسخروا من محادثات الكيلو ١٠١ وفك الاشتباك الأول والثاني كانوا يتبعون سياسة الفيران، وسياسة الفيران، هي التي قادت إلى مصيدة بيروت، ومصيدة بيروت كانت عاراً على إسرائيل ولكنها كانت ذلاً وعاراً علينا، لقد حيينا الرجال الخارجيين إلى ملاجئ جديدة وكاننا نصلى صلاة جنازة، وبعد رحيل الأسرى أقامت إسرائيل لنفسها نائب ملك على لبنان، ونائب الملك يسمى بشير الجميل. إنه نائب الملك ببجين ونائب الملك ريجان، وما كنا نتحاشاه من سنوات يقع اليوم، لبنان يتحول إلى لبنانيين، والمعركة انتهت على طريقة الفيران، كما تنتهي شيئاً فشيئاً معركة أفغانستان التي أقام عليها جلالة القيصر ليونيد بريجنيف نائب ملك يسمى ببارك كارمل.

لقد تتبعت أخبار استسلام بيروت والدمع ملء عيني لأن هذا المشهد ليس جديداً على، فقبل ٤٩٠ عاماً وثمانية أشهر أي في الثاني من يناير ١٤٩٢م كان فرناندو وإيزابيلا يحاصران غرناطة لكي يحكما الحصار على المعقل الأخير للمسلمين. ابتنيت مدينة تسمى سنتافي أي العقيدة المقدسة، وفي صباح الثاني من يناير هذا خرج أبو عبد الله آخر

ملوك غرناطة التعماء مستسلمًا وسلم رايته ومفتاح المدينة إلى المنتصرين، يومها أكرموه كما تكرم رفات الأموات وقالوا له: تخير المنفى الذى تريد أيها الملك الصغير ونحن نوصلك. وخرج الرجل وحاشيته منكمس الرأس، وسار وكأنه نفسه جنازة، وطريق المنفى إلى مدينة وادى آش، كان طويلًا، ولكنه على أى حال أقصر من الطريق إلى اليمن الجنوبية، ما من مرة قرأت خبر تسليم غرناطة إلا سألت نفسى: ماذا جرى للرجال؟ إن أبا عبد الله هذا كان آخر رجل تعرفه من سلالة صحابى جليل هو سعد ابن عبادة الذى شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وجاد بمعظم ما له فى سبيل الإسلام. ما أجمل البداية وما أسوأ النهاية، والفرق كلمة واحدة، فى البداية كان الرجال وفى النهاية كان الفيران. بين البداية والنهاية تسعة قرون لأن سنة ١٤٩٢م هى سنة ٨٩٧ هجرية، والرجل الذى سلم غرناطة لم يطمئن فى منغاه تحت رحمة عدوه، فكتب إلى سلطان المغرب أبى عنان خطابًا فى نحو عشرين صفحة يعتذر فيها عما أضع، وخلاصة العشرين صفحة هى: لقد ضيعت غرناطة لأننى فأر حقير، فهل تسمحون لفأر حقير بأن يجد جحرًا فى بلادكم يموت فيه؟ وسمحوا له وأقبل يجلله العار ولكنه لم يشعر بالعار لأن الفيران لا تعرف العيب. وككل فأر فى التأريخ اصطحب معه تسعًا من جواريه! ألم أقل لك إن الفأرة تنجب فى السنة إذا أرادت ٨٠ فأرًا؟ أتدرى كم زوجة كانت للملك فرناندو الكاثوليكي المنتصر؟ واحدة هى إيزابيلا.. امرأة بألف رجل. أتدرى كم طفلاً أنجب فرناندو وإيزابيلا؟ بنتا واحدة هى خوانا التى جنت فيما بعد وسميت بخوانا المجنونة، وخوانا هى أم واحد من أعظم حكام أوروبا هو الإمبراطور شارل الخامس أو شريكان، وشريكان أنجب ولدين الملك فيليب الثانى الذى حاول أن ينتزع البحر المتوسط من أيدي المسلمين. وأخاه غير الشرعى الأمير خوان يوستريا الذى كسب نصر ليبانتو سنة ١٥٧١م وانتزع سيادة البحر

المتوسط من الأتراك العثمانيين. هذا هو ما يخرج من صلب الرجال والنساء الذين يصنعون التاريخ. أما أبو عبد الله الصغير ملك غرناطة المنهزم فقد أنجب من نسائه التسع فيرانا بلا نهاية ، وعلى جحور الفيران حبس شيخ أندلسى يسمى ابن عاصم وقرأ تلقين الموتى ، والتلقين كتاب عنوانه «جنة الرضى (بضم الجيم) فيما قدر الله وقضى» والعنوان جميل ، ولكنه تلقين قرىء على قبور فيران لو كانت للفيران قبور ، أما العبرة فقد نطق بها شوقى عندما قال يصف مشهد خروج بقايا الأندلسيين.

آخر العهد بالجزيرة كانت

بعد عرك من الزمان وخرس

فتراها تقول: راية جيش

باد بالأمس بين أسر وحبس

ومفاتيحها مقاليد ملك

باعها الوارث المضيع ببخس

خرج القوم فى كتائب صم

عن حفاظ ، كموكب الدفن خرس

ركبوا بالبحار نعشا وكانت

تحت آباؤهم هى العرش أمس

سبحان الله! ماذا يصف شوقى؟

غرناطة أم بيروت؟ خروج أبى عبد الله أم خروج الفلسطينيين؟

سيان ، فإن الفيران لا تصنع التاريخ ولا هى تقرأ الشعر. إنها تصنع

فيرانا.

ولكن هل الفيران وحدها هى التى تصنع الفيران؟

لا والله ، إنما الناس أيضاً تصنع الفيران.

وهذه الفيران التى تلتهم مزارعنا نحن الذين صنعناها.

وانظر إلى أى قرية مصرية وقل لى بصراحة: هل الذين يقبلون العيش فيها ناس أو فيران. أنا شخصياً أقول لك إنه لا يوجد إنسان يحترم إنسانيته يرضى بأن ينام فى دار من الطين والبوص والسعف كلها شقوق وجحور وندوب: ولا ينهضن إلى إنسان ويحاول المزايدة والدفاع عن الفلاح ، فما أظن أحداً فى هذا البلد يأسى لحال الفلاح كما آسى، والمسألة أيها الإخوة ليست بلاغة ألفاظ ولا التماس أعذار ، إنما هى مسألة البحث عن الخط الفاصل بين الفيران والناس، وهناك حد أدنى تنتهى عنده الآدمية ، ورجل يقف فى الطابور عند مركز توزيع السجائر فى القرية ليحصل على علبة سجائر سوبر ثم يشربها فى جحر فيران هو حالة نفسية تستدعى العلاج، لأن الأمر هنا لا يتوقف عند بيت من طين يعيش فيه رجل يتفرج على التليفزيون ويدخن السوبر ويصنع كل عام طفلاً، بل هى مسألة بلد يتحول كله تحولاً عجيباً من سيئ إلى أسوأ ، كأنه تخطى الحد الفاصل بين الفيران والناس.. ونحن هنا لسنأ أمام مشكلة فيران بل أمام مشكلة بلد بأسره. والموضوع لا يهم وزارتى الزراعة والصحة بل هو موضوع وزارتى التربية والتعليم والثقافة أيضاً، وليست أنا أول من اكتشف هذه الظاهرة وكتب فيها. واقرأ هذه السطور التى كتبها أنيس منصور فى واحد من مواقفه بتاريخ ١٦ أغسطس ١٩٨٢ م :

«وهذا الزحام يجعل الناس أكثر استعداداً للعدوان على الآخرين لأنهم فى حالة دفاع عن النفس وعن الجسم وعن المساحة الصغيرة فى الطريق والطابور والأوتوبيس ، وهذا الشعور يسلب الناس شعورهم بالأمان ، ولذلك يتوجس الناس من الناس ، وتكون العلاقات مجرد حسن جوار ووقف إطلاق النار لا محبة ولا مودة. ولا صداقة وإنما زمالة وتعايش معاً تماماً كما يتجاور الناس فى الأسانسير أو تتلاصق السيارات فى الموقف أو تتكدس صناديق الزباله فى الشوارع أو المتهمون فى

القفص أو الجثث فى المشرحة ، ولأنك لا تنظر عادة إلى وجوه الناس فإنك لا تميز أحداً عن أحد ، فكل واحد ليس إلا حبة عدس فى شوال أو علبه صفيح فى صندوق. كل الناس مثل كل الناس ، وكلهم ليسوا أصدقاء لأنك فى زحام الحركة والمشاعر ، وفى ضباب الهموم وتراب القرف ، لا تستطيع أن تميز بين العناق والخناق. ولا بين الذى يميل إليك والذى يميل عنك ، ولا بين الذى يذهب إليك والذى يذهب عنك ، فوجوه الناس مثل ظهورهم وهى جميعا تستحق الحرق» .

يا إلهى ! هذا وصف ناس فى مدينة أم موكب فيران؟!

هل هذا مقال أو رثاء «بوست مورت»؟!

إنه فعلاً رثاء أو تلقين على قبر ميت.

وإذا صدق إحساسى ، وكان كلام أنيس منصور تلقينا بعد الموت (بوست مورت) ، فأليك اليوتوبسيا أى تشريح الجثة. قام به طبيب فى الطب والفكر هو يوسف إدريس. فقد أخرج الجثة من المدرج وشرحها. وإليك جزءاً من التقرير الذى كتبه ، ومن أسف أننى لا أستطيع أن أورده لك على تواليه فهو عندك فى أهرام ٢٢ أغسطس ١٩٨٢م.

«الواقع أبداً لا انفصال بين الحادث فى لبنان والحادث لنا وإذا كان الأطفال يقتلون فى لبنان وكذلك النساء فإن الأطفال فى العالم العربى يرضعون أفكارا سقيمة أشد فتكاً من القنابل العنقودية ، والنساء فى عالمنا العربى مقتولات روحاً وجسداً وكرامة، فكما أن الواقع واحد فالمعركة أيضاً واحدة ، وإذا كانت الأقلام كلها فى أنحاء العالم قد أجمعت على استنكار الموقف العربى فهذا الموقف لم يأت من فراغ ، إنه نتيجة محتمة لفراغ العقل العربى وبالتالى انعدام الإرادة العربية ، فالإرادة والفعل والموقف أشياء لا بد أن تنبع عن فكرة وتفكير وإعمال هائل للذهن ، فإذا لم يكن هناك ذهن يعمل وإذا كان العقل قد خوى

إلا من التفكير فى سد الغرائز وضمان المستقبل الفردى ، إذا كانت دائرة الأفكار قد ضاقت حتى لم يعد المواطن فى مصر أو فى غيرها من البلاد العربية يرى إلا ما حوله وأمام أقدامه مباشرة فكيف نطلب منه أن يرى عدوه بله أن يقاتل أو يقاوم عدوه؟».

وفى رأى يوسف إدريس أن هذا التحول المخيف فى شخصية الإنسان العربى يرجع إلى غياب الحرية والديمقراطية من حياة العرب جميعاً منذ كانت عصور الاستقلال.

فالديمقراطية تخلق الإنسان الواعى الذى يفكر بنفسه مستقلاً عن غيره ، الذى يرى طريقه ويتجه إليه وفى غياب الديمقراطية تنشأ عقلية القطعان أو نفسية الجماعات (ماس سايكولوجى) وهنا نجد الناس يسيرون فى حياتهم على الصورة الرهيبة التى يصفها أنيس منصور ، ويقول يوسف إدريس: «ونظرة واحدة لفوضى المرور فى شوارع القاهرة تعطيك فكرة واضحة أن جماعة السائقين سواء أكانوا محترفين أم هواة جماعة غوغائية محضة كلها أفعال وردود أفعال صبيانية وأنانية لا تجدها إلا عند الأطفال (أو الفيران؟) إنه أيضاً نوع من سلوك الجماعة الناتج عن فكر جماعى متخلف لا يرتد إلى النظام تماماً كالأطفال إلا برادع قذى عينى أو غرامة أو حبس ، فى حين أن الإنسان الحر الناضج ليس فى حاجة إلى أن يخاف ليتبع القانون إنه يتبع القانون إيماناً منه بحق الناس عليه ، وهذا هو السلوك الناضج الناتج عن فكر ناضج..

أنيس منصور ويوسف إدريس هنا على حق.

وإنه لمن غرائب الظواهر أن التعليم أيام الإنجليز ودنلوب أخرج طلعت حرب والعقاد وطه حسين والمازنى وسلامة موسى وسعد زغلول وتوفيق الحكيم ، والباشا الذى كان يفحص الأشجار والزراعات يوماً بعد يوم ، والتعليم فى عصور الاستقلال فى العالم العربى كله أخرج كتبه

أرشيف لا يحسنون إلا القيد فى السراكى والحفظ فى الملفات والصادر والوارد.. النمل والصراصير والعنكبوت.. كما يقول نجيب محفوظ فى ثرثرة فوق النيل ، والتاريخ الذى أعلمه للطلاب لا يبقى منه فى أدمغة الطلاب إلا ما بقى فى ذاكرة عم أنيس أفندى المسطول الذى أخرج من الدرج محبرة وراح يملأ القلم. عليه أن يعد البيان من جديد. حركة الوارد لا حركة البتة فى الحقيقة. حركة دائرية حول محور جامد ، حركة دائرية تتسلى بالعبث ، حركة دائرية ثمرتها الحتمية الدوار، فى غيبوبة الدهور تختفى جميع الأشياء النminente ، من بين هذه الأشياء الطب والعلم والقانون والأهل المنسيون فى القرية الطيبة والزوجة والإجئة الصغيرة تحت غشاء الأرض وكلمات مشتعلة بالحماسة دفنت تحت ركام الثلج ولم يبق فى الطريق رجل وأغلقت الأبواب والنوافذ وثار الغبار لوقع سنابك الخيل وصاح الممالك صيحات الفرح فى رحلة الرماية كلما عثروا على آدمى فى مرجوش أو الجمالية أقاموا منه هدفاً لتدريبهم ، وتضيع الضحايا وسط هتاف الفرح المجنون.. وهذه سطور رائعة من قلب نجيب محفوظ.

وصورة المسطول هذا الذى دار رأسه من القيد فى دفاتر الصادر والوارد قفزت إلى ذهنى أكثر من مرة وأنا ألقى محاضراتى فى التاريخ ، فأنا أحاول أن أفتح بجهد الموت أذهانا أقفلت تماماً من أكثر من ثلاثين سنة حتى أصبحت توابيت ، وأنا أشرح للطلاب معنى حركة التاريخ لكى أخرجهم من الخنادق التى تترسوا فيها ، ويرفع طالب إصبعه ويذهينى الفرح وأقول: أخيراً فتحت تابوتا ، ويقف الطالب ويقول: يا أستاذ الكلام الذى تقوله هذا سيجىء فيه سؤال؟ وتنهار آمالى كلها ، وأجلس فى تودة.

وانظر.. إننى لا أرى طالباً بل فأراً واقفاً فى طايور سجائر السوبر ، وأنا مع الأسف بائع السجائر ، والسيجارة التى أبيعها اسمها ليسانس آداب سوبر ، يضعها الفأر فى منقاره ويمضى يطالب الدولة بوظيفة ،

والدولة لا تعطيه وظيفة إنما إعانة أو بدل تعطل ، ولا يكاد حضرته يطمئن إلى أن اسمه قد تدون في سجل المستحقين في الحق المعلوم الذى قال الله إنه حق للسائل والمحروم ، حتى يطالب بشقة يتفرغ فيها لصنع فيران،

وبعد.. فقد أصبحت حياتنا كلها مواجع .

مواجع تبدأ من ساعة تفتح عينيك فى الصباح إلى ساعة تغلقها فى منتصف الليل ، وقد كنا فى الماضى نستقبل اليوم بشيء جميل يسمى طبق الفول ، ولكن طبق الفول اليوم أصبح طبق حصى وسوس ، وبائع الفول الذى كان فيما مضى إنساناً لطيفاً شجى الصوت أصبح اليوم رأسمالياً يكلف قدرة الفول خمسين قرشاً ويبيعهها بخمسة جنيهاً ، وهو يبيع فى اليوم أربع قدور ، وصافى ربحه يا مولانا فى اليوم خمسة عشر جنيهاً على أقل تقدير وهذه ٤٥٠ جنيهاً أى ضعف مرتب الأستاذ الجامعى ، وأكثر من مرتب الوزير. والغريب أن الوزير نفسه مازال يضع بائع الفول فى قائمة الكادحين المطحونين ، وهو نفسه الوزير أقصد - أول المطحونين.

وأنت لا تدري من أى المواجع تشكو؟

مواجع الزبالة التى تتعالى فى الطرقات ، أم مواجع المواصلات التى أصبحت مرضاً متوطناً ، أن مواجع الفيران والناس؛ أم مواجع اللطمة المخزية التى تلقيناها فى لبنان ، أم مواجع العرب الذين حكموا على أنفسهم بالذل والهزيمة والموت قبل أن يحكم عليهم الزمان؟!

يأس قاتل يكاد يحطم الرأس والبدن والروح ، وأنا واقف أقاوم ولا أريد أن أستسلم ، لأنه لا يدخل عقلى كيف ندع غرناطة تسقط ونحن العرب والمسلمين ملايين . فتجىء مأساة المجاهدين فى لبنان وأراهم يا ولداه يعاملون معاملة محكوم عليه بالإعدام ، تفضل جلاله

الملك رونالد ريجان فأصدر أمراً بتخفيف الحكم عليه وجعله نقيماً مؤبداً.. ويمر الجيش الكسير مطوى الرايات فى قناة السويس فى طريقه إلى اليمن الجنوبية ويهتف المساكين! ثورة ثورة حتى النصر!

أى ثورة أيها العزيز وأى نصر؟! ألم تفهم بعد أنك لن ترى هذا النصر بعينيك ، لأن أنصارك وهم نحن نسوا طعم النصر لأنهم لم يذوقوه من أيام سليمان بن عبد الملك!؟

هل هى مواجع سقوط غرناطة أو آلام سقوط بيروت أو ويلات نائب الملك بشير الجميل وصاحبه ببارك كارمل نائب الإمبراطور بريجنيف أو هى مواجع العرب الذين سيعالجون مأساة لبنان بنفس الطريقة التى عالجوا بها مأساة فلسطين: صلاة الغائب تقام مرة فى الخرطوم ومرة فى فاس؟ دائما يصلون بعيداً جداً عن مقبرة الفقيد.

وأخونا أمين عام المؤتمر الإسلامى يهنئ نفسه بأنه عقد مؤتمرًا ناجحًا لإنقاذ أمة الإسلام فى يامينا عاصمة النيجر. وهو يعرف أن أهل جمهورية النيجر كانوا يكونون أسعد بكثير لو أنفق أموال هذا المؤتمر على حفر بئر يشرب منها النيجيريون لأن المساكين يموتون من العطش والجوع! تصرف عقلاء هذا أم أوهام مساطيل!؟.. ومعدرة عن إلقاء السؤال فإنما أنا مؤرخ حولنى تاريخ العرب إلى كاتب فى مكتب صحة يقيد الوفيات.

وصفحات دفتر القيد العريضة جعلتنى أخلط كل شىء بكل شىء وأنا معذورا! وأحياناً وأنا أقرأ الجريدة أشعر كأننى أقرأ أن الأمير المملوكى بيبرس الجاشنكير خرج يتمرن على الرماية فى ميدان التحرير، أو أن أبا منصور الحلاج قد بعث من قبره يصيح ما فى الجبة إلا الله! ولبس طيلساناً وامتطى حصاناً ووضع على رأسه عمامة وزنها قنطار وسمى

نفسه آية الله روح الله ، ومضى يتدرب على أبهة الخلافة على ضفتى الخليج.. أم هي فيران الدقهلية والشرقية قررت أن تصطاف على شاطئ المنتزه فى الإسكندرية؟
فيران وناس؟

لا والله إنما هم ناس أصبحوا فيرانا وفيران جاء دورهم ليصبحوا ناسًا ، وحركة التاريخ لا تتوقف ، وإن لم يفهمها تلميذى صاحب سيجارة السوبر فى المنقار. أم هم قومى العرب فى حاجة إلى رأس جديد؟ لأن رأسهم الذى يحملونه على أكتافهم لم يعد فيه مخ. لقد غسلوا مخهم ألف مرة بعد أيام الراشدين حتى لم يعد هناك مخ على الإطلاق..

والرأى عندى أن يضيف مؤتمر فاس إلى قراراته قرارًا أعتقد أن فيه الشفاء.. التعاقد مع شركات الإلكترونيات فى اليابان على صنع مخ عربى جديد يعمل بالكوارتز لأن المخ العربى العتيق قد تحول من ألف سنة هجرية إلى طحالب فى فجوات صخور الجماجم فى أعماق ليل الزمان ، ومعذرة يا أخى نجيب محفوظ إذا غيرت بعض ألفاظ عبارتك الرهيبة فى الثرثرة فوق النيل. والنيل كان يومًا نهرًا عظيمًا فجعلناه ترعة صرف صحى لأننا فيران. □

(٧)

لست وحدك فيها أيها العصفور*

الفكرة فى ذهنى من زمن طويل. وكنت أتريث بها حتى تبلغ أوانها من النضج واكتمال المادة فأكتبها على ما أرجو ، ويقرأها القارئ على ما يحب.

أما العنوان فقد قبسته من عبارة لجون شتاينبك أرسلها على لسان والد بطل روايته البديعة «إلى الشرق من عدن» وعدن هنا ليست مدينة اليمن المشهورة ولا هى جنة عدن الواردة فى القرآن الكريم ، وإنما هى قرية صغيرة فى الولايات المتحدة. وإلى شرقها وجد الشاب المغامر الذى تدور عليه الرواية عيون نطف تفجر منها الذهب الأسود عالياً فى السماء ثم انصب على الأرض مطراً ، وتحت هذا المطر الأسود وقف الشاب المهتاج يمسح به وجهه وقد استطاره الفرح وجعل يقول: الآن أنا ملك الدنيا! وهى لى جميعاً. الأرض أرضى والذهب ذهبى والرجال خدمى والنساء عشيقاتي!

وينظر إليه أبوه الشيخ مشفقاً عليه من هذا الغرور المدمر ، ويقول:
- يالك من مسكين.. تحسب أن هذه الدنيا لك وحدك.. لست وحدك فيها أيها العصفور.

أما الذى عجل بكتابتها ، فحادث عادى مما يحدث لى ولك كثيراً فى هذه الأيام، ونحن نروى مثل هذا الحادث للطرافة وتفريج الهموم ، وهى فى الحقيقة تنطوى على تصوير لداء ربما كان من أخطر ما نعانيه والقصة أننى أردت تنجيد كرسيين وبعض الوسائد فقصدت رجلاً من أصحاب هذا الشأن بعد أن اشتريت قماش التنجيد ، وسألته عن أتعابه فجعل ينظر ويقيس ويحسب. ثم قال:

* نشرت هذه المقالة فى ٢٦ سبتمبر ١٩٨٢ م.

- عن الكرسيين وحدهما مائة وخمسون جنيها
وفاجأني هذا التقدير الذى تخطى كل حساباتى ، فقلت له :
- وهذا آخر ما عندك؟

- إى والله ، وهو تقدير راعيت فيه ما بينى وبينك من قديم
المعاملة ، وهو لهذا أيسر ما أستطيع طلبه ، ولا أملك تخفيض شىء
منه .

- ما كانت نيتى قط أن أسألك التخفيف ، لأن الفرق بين ما كان فى
خاطرى وما قلت أنت شاسع ، فلندع الأمر كله الآن حتى يرزقنى الله
ما تطلب أو قريباً منه ، وأخذت قماشى ومضيت..

ودلنى الناس على رجل آخر حسن الصنعة وعلى جانب كبير من
الإحساس الخلقى ، فقام لى بالعمل كله : الكراسى والوسائد على أحسن
هيئة. وتقاضانى عن ذلك كله خمسة وستين جنيها.

وبعد شهر طرقت المنجد الأول بابى ، وقال وهو مروع مستاء :

- زوجتى تضع اليوم أو غداً ، وقد حملناها إلى مستشفى صديقك
الدكتور فلان لقرب مستشفاه منا وواسع شهرته فى التوليد.. ولكنه
يطلب قبل أن يدخلها المستشفى ثلاثمائة جنيه عن العملية وأيام ثلاثة.
أما فى ذلك؟ أدخلها لتلد فى أمان وتقوم بالسلامة.

- ولكن ثلاثمائة جنيه ! تلك كما ترى مغالاة ، وقد أتيت أرجوك أن
تكلمه فى التخفيف.

- أما أنا فلن أكلم صاحبى فى التخفيف ، وإذا كنت أنت تطلب
مائة وخمسين جنيها فى كرسيين ، فلماذا تستكتر على الطبيب
ثلاثمائة فى عمل فيه حياة.. وموت؟.. إننى أحسب أنه يغالى فى
التقدير ، ولكنك أنت أيضاً تغالى ، وأنت تتصور أن المغالاة حق لك

وحدك ، وقصر عليك. وأنت تنسى أننا كلنا نعيش فى دنيا واحدة ، فكما تغالى على الناس يغالون عليك ، وما تأخذه منى زيادة دون عدل يأخذه منك آخر زيادة دون عدل. والعلة جاءت من أنك تتصور أنك هذه فى الدنيا ، وكلها لك وحدك أيها العصفور.



ومن معانى الحضارة أنها القدرة العقلية على العيش معا ، كما يقول جوردن تشايلد ، فى كتابه المسمى «ماذا حدث فى التاريخ؟» فإن المخلوقات الوحشية مقطورة على الإحساس بأنها تعيش وحدها ، أو أن الكون مخلوق لها وحدها ، ولو ترك كل جنس وشأنه لأهلك البقية ، ولا يمسك الحيوان عن التهام الكون إلا الخوف على حياته هو، ولو تركت الأغنام وحدها لأتت على كل أخضر تجده ، ولكن الذى يمسكها ويمنعها من التماذى هو الخوف على حياتها من السباع ، وقد أهدانى صديق مرة حملاً صغيراً هو الوداعة نفسها ، فأطلقته فى حديقة صغيرة كانت عندى ليمرح ويزأط ، وخرجت وعدت آخر النهار فإذا بهذا الحمل الوديع قد قضى على ثلاثة أرباع الحديقة ، وأدهشنى أن يجتمع فى كيان هذا المخلوق الصغير الوداعة الجميلة والشراسة الرهيبة فى الافتراس. واللطيف أنه بعد أن ألحق بى هذا الضرر كله جعل ينظر إلى بعينه البرينتين وفكاه لا تتوقفان عن القضم والمضغ ، فقلت له : لا. وحياتك ما تخدعنى قط نظرتك الوديعه تلك. ولو تركتك على علاتك لأكلتنى على طريقتك ، ولا علاج لك إلا الجزار والفرن. هنا ستكون أنت أجمل وألطف ونعيش نحن عليك يوماً كما افترستنا أنت فى يوم.

وقد كان الإنسان البدائى قبل الدخول فى دور الحركة الحضارية يعيش بفكر صاحبنا المنجد الذى أباح لنفسه أن يستحل مالى دون حق ، ثم استنكر أن يستبيح غيره ماله ، مال الناس له حلال ، أما ماله هو فحرام ، والضمير والدين والإنسانية ينبغى أن توجد عند الآخرين

ليعاملوه بها، أما هو فيعامل الناس دون ضمير أو دين أو إنسانية ، وقد كان المنجد الذى ذكرته يكلمنى فى وداعة ذكرتنى بالحمل الوديع الذى افترس الحديقة فى يوم ثم جاء ينظر إلى فى وداعة وبراعة ، وقد التمتت عذراً للحمل لأنه خروف. وهذا مستوى فهمه ، ووجدت كذلك علاجاً لوحشيته ، فأكلته بعد أن أكلنى. ولكن ما حيلتى مع هذا المنجد وأشباهه ممن يفترسوننا على مدار اليوم دون إحساس أو مراعاة؟ وقد حدثونى عن رجل انكسر محور سيارته وهو المعروف بعمود الكردان ، فأصلحه درمه وباع السيارة لرجل آخر وهو يعرف أنه غشه. فباعه سيارة مقصومة الظهر. وشاركه فى ذلك الغش صاحب متجر سيارات ، فأما الذى باع السيارة فله ابن غير صالح يسلبه ماله قسراً ويهينه ويسود عيشته. وأما صاحب متجر السيارات فقد ذهب إلى أوروبا ليعربد ويتسوق فنهبوا ماله واشترى سيارة من إيطاليا وفى الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة انكسر عمودها الفقري ، وهو عمود الكردان. وكلاهما يشكو سوء حاله وما أصابه ، ويتعجب ويتساءل: ماذا فعلت يارب فى دنياى حتى يصيبنى هذا كله؟ والجواب على هذا التساؤل الغريب هو ما قاله جون شتاينبك على لسان الأب يخاطب ابنه:

- يالك من مسكين ، تحسب أن الدنيا كلها لك وحدك ، ولست وحدك فيها أيها العصفور.

وهنا نضع أيدينا على داء من الأدواء التى تجعل حياتنا اليوم جحيماً ، وقد أشرت إلى ما وصفه أنيس منصور من تزاخم الناس وتدافعهم ، ودفع الناس بعضهم لبعض فى الطرقات دون إحساس أو مراعاة ، فالواحد منهم يدوس الآخر ولا يبالي ، لأنه يعيش بإحساس أن الدنيا له وحده ، وهو وحده له حق المسير فى الطريق ، والآخرون دخلاء وله الحق أن يدوسهم إذا اعترضوا طريقه. ومن أسابيع وقفنا عند معبر للطريق فى شارع الهرم ، وكنا جماعة نريد أن نعبر إلى الضفة

الأخرى ، والسيارات تنهب الأرض دون مراعاة لأحد ، ونحن ننتظر ونشير بأيدينا ولا أحد يظامن من سرعته ويأذن لنا فى المرور ، كأنه هو وحده الإنسان ونحن لا ناس ، كأن الإنسان منهم إذا أخذ رخصة قيادة سيارة فهى عنده رخصة ليدوس الناس ، وبعد لأى وخوف شديد وقف لنا راكب سيارة وأوقف الآخرين. فعبّرنا ونحن لا نصدق بالسلامة ، وكأننا فى ميدان حرب. ونجونا من رصاص القناصة. وأنظر إلى صاحب السيارة الذى تفضل علينا بذلك فأجده الممثل عمر الحريرى ، وأقول لنفسى :

أخيراً.. رجل متحضر!

أجل: متحضر. لأن الموضوع هنا موضوع حضارة ، لأن الحضارة من معانيها الرئيسية القدرة على العيش معا فى سلام ، والعيش يختلف عن التعايش. فإن الحيوانات تتعايش على أساس الافتراض ، فهى لا تراعى بعضها بعضا ، وإنما يخيف بعضها بعضا ، ويتحامى بعضها بعضا ، فالسبع أو النمر والغزال تتعايش ، ولكن على أساس الهرب والخداع ، فالنمر لا يترك غزالا قط إلا إذا كان قد شبع وامتلأ أو قعد به المرض أو أعجزه الغزال بسرعة عدوه والأرنب يعيش فى جحر عميق لا سبيل للسباع إليه وهذا تعايش على أساس الغريزة الوحشية ولكنه ليس عيشاً معاً. ويفرق جوردون تشايلد بين الاثنين.

فالتعايش الغريزى يسمى CO-EXISTENCE معا على أساس العقل والفهم الحضارى يسمى CO-LIVING . فالأول مجرد وجود أو نجاة من الهلاك SURVIVAL : والبقاء مع الخوف الدائم. وفى وجود كهذا. لا أمن ولا فكر ولا تقدم. والثانى حياة فى ظل العقل والأمن وهنا يكون الفكر والتقدم والحضارة ، هنا يزدهر الفكر وتنمو الفضائل.. وينتقل الإنسان من الوجود إلى الحياة.

وهذا هو الذى انتهيت إليه بعد تفكير طويل فى أحوالنا فليس السذى نحن فيه اليوم حياة بل مجرد وجود أو إفلات من الهلاك أو «سيرفايغل»، فأنت تخرج من بيتك ولا تدري إن كنت تعود ، فإذا كنت راكب سيارة فأنت لا تأمن سيارة أخرى يركبها مخلوق يحسب أنه مادام قد اقتعد مكانه وأمسك بعجلة القيادة فقد أصبح الشارع كله ملكه ، وليس على ظهرها إلا هو وسيارته قاتله الله! فهو يندفع ويلف ويدور ويهشم سيارات الآخرين ، لأن الشارع كله ملكه ، والمرور كله فى خدمته ، وإذا كنت سائرا على قدميك ففرصتك فى النجاة قليلة؛ فالأرصفة استبد بها من دونك أصحاب سيارات أوقفوها عليها ، وبعضهم يسترسل فى البدائية والوحشية ويغضى سيارته على الرصيف بغطاء من قماش. لأن هذا الرصيف ملكه ، ونحن السائرين على أقدامنا لا شىء : هوام أو حشرات أو ققط وكلاب نستطيع أن نمر تحت سيارته ، فليس على ظهرها غيره. وبعد السيارات تجد بأعنا قد احتل الرصيف بصناديق فاكهة. ونحن إذا عذرنا هذا البائع لأنه جاهل يطلب رزقه بالطريقة التى تعود عليها.. فأى عذر نلتسمه لرجل المفروض أنه متعلم ويعرف شيئاً عن المواطنة والمواطنين؟ وما باله لا يكتفى بوضع سيارته على الرصيف بل يغطيها بقماش حماية لها ، ويرغمنا نحن على الهبوط إلى نهر الشارع والتعرض للخطر؟ إن سيارته عنده أغلى من حياة الناس ، وهذا مستوى فى الإحساس الإنسانى جد ضئيل ، وصاحبه لا يمكن أن يكون متحضراً. إنه حيوان بدائى يتصور أن الدنيا كلها ملكه ولا وجود للآخرين.

ومثل هذا الرجل ألوف وألوف من أولئك الذين يعيشون معنا ويحسبون أنهم مواطنون صالحون ، وماهم بمواطنين بأى حال. وقد تعودنا القول بأن اللص هو من يأخذ مالا ليس له ويدعى أنه له وهو يعلم أنه كاذب. وجريمة السرقة هنا لا تتوقف على قدر المسروق أو

طريقة السرقة ، فسارق الجنيه لص وسارق الألف لص ، والذي يدس يده فى جيبك وينشل حافظة نقودك لص.

والرجل الذى يقتحم دارك لص ، وكذلك الذى يتقاضاك عن سلعة أو خدمة أضعاف ما تستحق ، وقد يزعم بعض المشتغلين بالتجارة أنها تجارة وشرطة وأن التجارة تبيع للتاجر أن يكسب أقصى ما يستطيع . وهذا ليس مجرد خطأ فى فهم معنى التجارة . بل هو سرقة مقصودة . والمقدم عليها لص . وأى فرق والله بين النشال الوضيع والمحتال الرقيق وطبيب موفور الرزق يرفع أتعابه ضعفين وثلاثة . أو يطلب عن عملية جراحية أضعاف ما تسمح به آداب المهنة؟ والمحامى الذى يبذل أقصى وسعه فى الحصول على توكيلك ومقدم الأتعاب . ثم لا ترى منه بعد ذلك إلا تأجيلات وتسويات . وفى كل يوم يكون عنده أربع أو خمس قضايا فى محاكم شتى ، فيحضر واحدة ويكلف زملاءه بالاعتذار له وطلب التأجيل فى الباقيات ، ومدرس يتعمد إرغام التلاميذ بأساليب معروفة على أن يأخذوا عنده دروساً خاصة وينتقل من بيت لبيت كأنه محصل لا معلم . ويطول الأمر لو مضيينا نستعرض المنحرفين فى شتى المهن .

فهذه الممارسات كلها ممارسات عدوان على أموال الناس وعلى أمن الوطن كله ، وإذا كنت قد صورت لك جرائم أولئك الذين ينطلقون بسياراتهم فى الشوارع غير عابئين بإخوانهم المواطنين الذين يريدون عبور الشوارع ، وأريتك معى أنهم فى الحقيقة سفاحون على عجالات القيادة . فقد آن أن أقول لك هنا إن المسألة ليست مسألة استخفاف أو نزق فحسب ، ولا هى أعمال سطو غير مشروع على أموال الناس وحياتهم فقط . بل هى دليل على أن المستوى الحضارى العام منخفض جداً ، لأننا فى الحقيقة نعيش بأسلوب البدائيين الهمج الذين لا يعيشون ولكنهم يتعايشون . والحياة عندهم هرب من الاعتيال ونجاة من الهلاك أو «سيرفايفال» .. وصدقنى .. إنك عندما تعود إلى بيتك

سليماً بعد انتهاء عملك فتلك مصادفة لأن أى ضلوك جالس على عجلة قيادة كان من الممكن أن يصدك ويصيبك بأذى لا حدود له. لولا عناية الله ، وإذا صحت مز، نومك بحمد الله معافى أنت وأهلك فتلك أيضاً مصادفة ، لأن شيئاً ما لو طرقتك أو أيا من آلك بالليل ، لا قدر الله ، واحتجت إلى الطبيب المسعف فسيطول شقاؤك ، لأن التليفون لن يسعفك ، ورقم الإسعاف لا يرد ، ولو رد فإنه لن يدركك إلا وقد فات الوقت ، وإذا أتى رجال الإسعاف وحملوا المريض فهو لا يدري فى أى أيد سيقع ، والمفروض أنك تحت مظلة التأمينات. ولكن تلك المظلة سلوك ولا قماش ، وما أنا ذا أكتب لك هذه السطور وأنا مثلك تحت المظلة ، ولكن صدقنى أنه لو وقع لى شىء الآن فلا أنا ولا أهلى تعرف إلى أين تتجه ، والمفروض أن كلا منا ينبغي أن تكون معه بطاقة تأمين صحى على مستشفى أو مركز إسعاف معين قريب من بيته. وفى البطاقة أرقام تليفونات المفروض أنها ترد وتستجيب وتسعف فى المحال. وقد قيل لى إن هذه البطاقات موجودة ، ولكن الذين اعتمدوا عليها ندموا على ذلك أشد الندم.

والمصيبة أن هذه البطاقات موجودة ولا تنفع ، وليس أمامنا جميعاً إلا الحل القديم الذى كان موجوداً قبل المظلة وبعدها. وهو أن تتصل بطبيب صديق إذا كان لك طبيب صديق ، أو يسرع المصاب أو يسرع به آله إلى قسم الطوارئ فى أحد المستشفيات ، وهذه الطريقة موجودة قبل المظلة. وكانت فى الماضى تنفع ولكننى جربتتها مع ناس أحبهم ثلاث مرات ، وفى مرتين ضاع منا المريض ، وفى الثالثة أنقذناه فى آخر لحظة «صدفة» والصدفة كانت طبيباً طبيباً متحضرًا مجرباً وجدناه هناك «صدفة» فرأف بحالنا فأسعف المريض.

إذن فكيف تكون هناك مستشفيات ومراكز إسعاف وأرقام مدونة على بطاقات ولا نتيجة؟ كيف يكون هناك ناس معينون لإسعاف المرضى فى مئات المستشفيات ولا فائدة والمريض أو المصاب الذى يصل يقضى

الساعة أو أكثر قبل أن يظفر بأى عناية؟ هل هذا خطأ الدولة أو المسؤولين عن شئون الصحة؟ لا والله فالحكومة تنشئ المستشفيات وتعين الأطباء والمرضيين وتدفع الرواتب ، ولكن المصيبة فى الناس الذين لا يحسون بإحساس الآخرين قط ، والمريض أو المصاب فى نظرهم رزية أو جثة. رجل غريب ينظرون إليه كما كان البدائى ينظر إلى أى رجل غريب عن قبيلته إنه ليس إنساناً فى نظره بل هو عدو ينبغى التخلص منه ، إنهم يحسون أن الدنيا كلها خلقت لهم وحدهم ، والآخرون ليس لهم وجود.

ومنذ عامين كنت فى طليطلة بأسبانيا فى مؤتمر ، وأصيبت ساقى إصابة أليمة ، وناديننا تاكسيا فأخذنا إلى أقرب مستشفى ، وما كدنا نصل حتى لاحظ المرضون أننى لا أستطيع السير ، فأسرعوا بكرسى ذى عجلات ونقلونى عليه ، وخلال ساعة كان الكشف قد تم ، وعملت صور الأشعة ، وكتب العلاج ، كل هذا ولا بطاقة مظلة معى ولا رقم تليفون وإنما هم الناس الذين هناك هم الذين يشعرون أن المريض إنسان مثلهم ، له حق العناية ، وأنهم يتقاضون رواتب ليكونوا هناك دائماً. أما أن تصرف الرواتب وأصحابها إما أنهم غير موجودين فى مواقعهم وإما أنهم موجودون ولكنهم ينظرون إلى أى مريض يؤتى إليهم به وكأنه رزية أو بلية أو تلقيحة ، فلا بد أن يكون هناك شىء ناقص. إذا وجد المرض لم يوجد الطبيب ، وإذا وجد المرض والطبيب فجهاز الأوكسوجين لا غاز فيه والأشعة معطلة وفى كل الحالات فالدواء غير موجود وعلى المريض أو آله أن يسرعوا إلى الصيدليات المناوبة.. وأين هى؟ فى أوروبا تجد على باب كل صيدلية مقفلة قائمة بالصيدليات المناوبة المفتوحة فى ليلتك. كشف داخل برواز مضىء وعلامة على أقرب صيدلية ، وأسأل صديقاً صيدلياً فى ذلك فيقول: جربنا ذلك فكان اللصوص يسرقون المصابيح ، والمصباح الصغير هذا ثمنه قروش قليلة ، وأنا شخصياً لم

أسمع بهذه التجربة «ونقابة» الصيادلة لم تضع أى تعليمات دقيقة لتنظيم شئون الصيدليات المناوبة، والإعلام الضرورى بهذا الشأن منعدم ، وبعد نشرة الأخبار فى أى بلد متحضر يقرءون عليك فى التليفزيون قائمة بالصيدليات المناوبة فى كل حى ، وخاصة فى المدن الكبرى ، والناس يصغون إلى هذا البيان وفى يدهم المفكرة والقلم ، ليدون كل منهم الصيدليات المناوبة فى حيه ، ويكفى فى هذه الحالة أن يعطوك صيدليتين فى كل حى ، لأن الصيدلية تدلك على الطبيب إذا احتجت إلى الطبيب ، أما عندنا فانك تسمع بعد النشرة أغنية تقول لك: إنك تنتسب إلى سبعة آلاف سنة من الحضارة ، وتتلفت حولك وتبحث فى جيوبك وتنظر من النافذة وتسال أين؟ أين هى تلك الآلاف السبعة؟ كان يكفى والله سنة واحدة! كان يكفى أن نكون فى سنة أولى حضارة على أن تكون سنة أولى وحضارة حقاً.

لا بد أنك رأيت بعض أفلام رعاة البقر.

ولا بد أنك رأيت مرة فى هذه الأفلام قطيعاً من البقر أو البقر الوحشى المسمى بالبيزون ، وقد ذعر وانطلقت ألوفه فى حالة ذعر أو فرح أو «يانيك» حيوانى يسمى «بالاستامبيد» هنا ترى ألوف البقر تنطلق مروعة يدوس بعضها بعضاً، وتدوس كل ما يعترض طريقها. فهذا هو ما تراه حولك: استامبيد! والناس يخطفون من حولك ، ويدوسونك إذا اعترضت طريقهم أو لم تنتبه لنفسك ، وانظر إلى الشارع المصرى وقل لى إن لم تكن بالفعل فى حالة اليانيك هذه. فالسيارات تدوسك قطعاً إذا لم تكن فى يقظة الفأر ، وإننا لنرى من فظائع ما يحدث مالا يكاد يصدق ، وفى الإسكندرية على الكورنيش تبينت أن عبور الشارع مخاطرة بالنفس ، وكادت السيارات تصيبنى بشر عظيم ذات مرة ، فأقصرت عن العبور. وحرمت على نفسى متعة المشى على شاطئ البحر ، ولأجلها أتيت! ولدة عشرة أيام لم أجازف بعبور الشارع مرة

واحدة ، وبين رجل مرور ورجل مرور مسافة مليون أو أكثر ، وأصحاب السيارات كأنهم أعلنوا الحرب على المشاة. لا هواده ولا رحمة كأنهم غزاة دخلوا بلدا وألغوا قوانينه وأعلنوا حالة طوارئ وهم أعلنوها فعلاً ، وأى سائر فى الطريق يعتبر نفسه فى حالة طوارئ.

وما يحدث لك فى الطريق يحدث لك فى غير الطريق فر، صور شتى، وأنت دائماً فى حالة «يانيك» ودفاع عن النفس ونجاتك مصادفة! وهل هناك أبسط من عملية شراء شىء من الفاكهة؟ ولكنك لا تكاد تقترب من الفاكهى حتى يشرع فى عملية اغتيال مالك ، فالسعر الذى يقوله لك مضاعف ، وأنت وحظك ، فإذا كسبت منه معركة السعر اغتالك فى النوع: قطعتان على الوجه والباقي ستلقيه فى الزبالة، فإذا كسبت معركة النوع اغتالك فى الوزن! فمالك ضائع ضائع، وهذا الذى يبيحك الشىء عدو يتحفز ليغتال مالك. وأى عامل تطلب إليه خدمة فهو يفرض عليك أجرا وكأنه يشهر فى وجهك مسدساً ويقول لك كما يقولون فى الألمانية: مالك أو دمك. وقد تعودت أن أكشف على نظرى عند طبيب أعرفه كشفاً روتينياً مرتين فى العام ، لكى أقيس المسافة بينى وبين الظلام ، وكنت أدفع فى هذا الكشف جنيهاً عشرة إلى العام الماضى ، وهذا العام أعطيت شيخ الخفر ، ولا أقول الممرض فهو فى الحقيقة شيخ خفر ، الجنيهاً العشرة.. فقال: عشرة أخرى ، أصبح الكشف عشرين ، ففكرت قليلاً ثم أخذت منه الورقة المالية وقلت: لا لزوم مادمت أفرق بين الورقة ذات العشرة والورقة ذات العشرين ، فحالة النظر هى هى والحمد لله ، وصاحبى الطبيب لن يقول لى إلا هذا على أى حال وهبطت السلم وأنا أغبط نفسى على أننى كسبت عشرين جنيهاً!

ومن المستول عن ذلك؟

الحكومة؟

وهل الحكومة إلا نحن؟ ومن يكون الجالسون فى مكاتب الدولة إلا نحن أو أبناء عمومتنا؟.. فالعيب فيهم كما هو فينا. ومن شهر شب حريق فى بيت جار صديق بعد منتصف الليل ، وبعد محاولات لاستدعاء المظافى بالتليفون ، رد رجل يقول: المظافى لا تستدعى إلا من مراكز البوليس! ويسرع ابن الرجل بملايس البيت ميلين إلى نقطة البوليس ، فيجد الضابط يتحدث ويتضحك بالتليفون ، ثم استأذن من صديقه ، وقال للشباب:

- فيه حاجة يا حضرة؟

- أجل ، فى بيتنا حريق . وأرجو استدعاء المظافى.

- البطاقة؟

- سيدى لقد أتيت إلى هنا عدوًا والنار فى بيتى.. أرجوك وأنا فلان..

- البطاقة أولاً

وأسرع الشاب عائداً إلى بيته ، بينما رفع الضابط سماعة التليفون وعاد إلى الضحك وهو يقول:

- بقى هيه الحكاية كده يا حمادة؟

وعندما عاد الشاب ، وجد أن النار قد التهمت نصف البيت ، وذكر الأب أن لديه رقم ابنة أحد كبار المسئولين فهى صديقة ابنته ، فاستغاث بها فجاءه الفرج.

والرجل موجود يستطيع أن يؤكد الواقعة.

ولكننا أمام حالة فريدة لناس يعيشون كأنهم عصافير أو غربان ، كل منهم يحس كأنه وحده على ظهر هذه الأرض ، أو كأن الله خلقها له وحده ، والناس من حوله غرماؤه فهو يغتالهم على قدر ما يستطيع ،

وهم أيضاً يعاملونه بالمثل ، ولو استطاع الواحد منهم أن يمحق الآخرين ليعيش وحده لقلل.

مبالغه؟ لا والله! إنه الواقع ولا زيادة ، وبالأمس سمعنا ثلاثة أو أربعة من المسئولين عن مياه الشرب يقولون: إن الطحالب فى الماء دليل على جودته وصلاحيته للشرب ، وأنا واثق أننى لو قدمت لكل واحد من هؤلاء السادة كوب ماء بالطحالب وقلت له: أشرب ماء صحياً بالطحالب.

أتظن أنه يشربها؟ لا والله! إنه يرضاها لنا ، ولا لنفسه ، فنحن شىء وهو شىء. نحن لا ناس وهو ناس ، وقد خلق الله الدنيا كلها بما عليها ومن عليها لهذا العصفور ، فليس على ظهرها غيره.

وهل هذا المستوى الحضارى المتدننى جديد علينا؟ أقصد هل كنا بالأمس أحسن مما نحن عليه اليوم؟

فى الظاهر فقط ، أما فى الباطن والحقيقة فقد كنا دائماً هكذا.

أما ما يبدو من أنه كان هناك - من ثلاثين سنة مثلاً - نظام أحسن وخلق أسمى وأخلاقيات أعلى ، فالسبب فى ذلك أننا كنا أقل عدداً ، وكانت المرافق جديدة ، فلم يكن التزاحم بهذا العنف ولم تكن المرافق قد بليت ولا كانت مكاتب الحكومة قد اتسخت وهبط حالها إلى المستوى المخيف الذى هى عليه اليوم.

وكانت قد عبرت بنا موجة - قصيرة الأمد مع الأسف - من الحضارة الأوروبية فتأثرنا بها حيناً ثم عدنا إلى ما كنا عليه.

عدنا إلى حضارة المجتمع العربى من القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى وما بعده ، وهى حضارة تدهور وأضطراب وظلم.

وفى ظل هذه الحضارة لا يكون للإنسان هم إلا النجاة بنفسه وعباله ،
وفى ظل تلك الحضارة المتردية سادت الأنانية ، وكل إنسان كان
يتصرف على أنه عصفور - أو غراب - وحيد فى تلك الدنيا ، وكل ما
فيها له وحده ولا وجود للآخرين..

أما حضارة التعاون ، حضارة العيش معاً ، فلم نسعد بها إلا فترة
قصيرة جداً.. وتلك حكاية أخرى تحتاج منا إلى حديث يعيننا الله عليه
إن شاء الله. □

(٨)

أنفقت مالى وحجَّ الجمل*

عادت قوافل الحجاج إلى قواعدها سالمة والحجاج عادوا من رحلة التقى، والصلاح أبراراً كما ولدتهم أمهاتهم. لكى يبدءوا عامًا جديدًا من أعمارهم المجيدة يخوضون خلاله فى متاهات الحياة إلى الرقاب. ويكونون فى نهايته سودًا كالهباب كما تريدهم شياطينهم.

وعلى ألوف البيوت فى طول البلاد وعرضها أقيمت الزينات على بيوت الحجاج السعداء، وتألقت حبال من المصابيح المختلفة الألوان تعلن أن هنا واحدًا من السعداء الذين حجوا وزاروا ولبوا وسعوا ووقفوا بعرفات وأفاضوا من منى وغفر الله سبحانه لهم كل ذنب تقدم وقلدتهم الملائكة الأطهار أوسمة من نور.

وأمام العمارة الصاعدة إلى عنان السماء التى شادها الحاج حسنين عبد الدايم عنبة - عنبة واحدة - على أرض استولى عليها بوضع اليد وبناها دورًا دورًا بحجارة من جهنم. جلس الحاج الذى زار سبع مرات واعتمر سبع مرات وأسبل عينيه يستمع إلى آيات الذكر الحكيم فى سرادق عظيم أقامه بماله كله منهوب وأضاهه بألف مصباح وأخذ التيار لها من جامع سيدى المحبوب، لأن الحاج عنبة لا تقف جرأته عند مال النبى. بل هو أيضًا يأكل مال الله، ولا ضير عليه فى ذلك فإنه يقول: أن الله سبحانه يغفر كل الذنوب.

وترك الحاج التقى الصالح آيات الذكر الحكيم تتضوع كالمسك فى جو السرادق، وجلس على أريكة عالية حليق اللحية مصبوغ الشعر كأنه عريس وسبح مع أحلام مئات الألوف التى سيجمعها هذا العام. فقد

* نشرت هذه المقالة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٨٢ م.

عقد بعد أن أفاض من منى وحل الإحرام عقداً مع حاج من أمثاله من أبناء الملايو يسمى عبد الستار فونج تونج ومركز أعماله في هونج كونج، باستيراد بضعة مئات الأطنان من أحقر أصناف الشاي، وتسلم من الحاج فونج تونج بعد أن دفع العربون صندوقاً مليئاً ببطاقات مستديرة مطبوعة بالذهب آنق طبع وأجمله تقول:

إن هذا الشاي هو القطفة الأولى من الأيرل حراى أغلى شاي فى الدنيا، وقد رصها الحاج فى الصندوق رصاً وغطاها بسجاجيد صلاة ومسايح ولفائف من المسك والعود، فرقها على رجال الجمارك وهو عائد إلى الوطن العزيز، ومر من الجمرك دون تفتيش، وتراب الشاي يعبأ الآن فى دهاليز دكانه فى أكياس من البلاستيك وتثبت فى كل كيس منها بطاقة مذهبة لتباع بعد ذلك على عباد الله المتعساء فى صناديق جميلة تقول بلغة إنجليزية سليمة إنها واردة من سيلان من صنع س. م. بلاك وت. ر. هوايت الموردين الخاصين لبلاط جلالة الملكة التى غربت شمسها فى كل مكان.

وأشرقت فى سرادق مقصوف الرقبة. الحاج حسنين عبد الدايم عنبة. ومحلاته من مشهد الإمام الحسين إلى العتبة. وعين الحسود فيها ألف حصوة وحبية.

وفى شارع قريب من الشارع الذى يقيم فيه الحاج عنبة أنواره تلالأت أنوار أخرى أوقدها زميله فى التقى والورع الحاج محمددين عوضين المجدوب فقد عاد هو الآخر من الأراضى الحجازية بعد أن أكرمه الله بالحج والزيارة سبع مرات وبالعمره سبع عشرة مرة.

جلس هو الآخر فى صوان أقامه عند عماراته التى شادها بالمال الحرام فى شارع الحجاز. جلس غارقاً فى أنوار الكهرباء وترقرقت آى الذكر الحكيم فى الآذان جميعاً إلا أذنه فقد كان مشغول بقضاياها التى

لا تنتهى لأن كل ساكن من سكان عماراته تلك قد رفع عليه قضية، ولو أحسنت الحكومة لخصصت له دائرة قضائية تشمل كل درجات المحاكم من الجزئى والابتدائى إلى النقض والإبرام لأن مال صاحبنا كله حرام فى حرام، والشقة التى قيل ساعة الاتفاق إنها مائتا متر أصبحت مائة وخمسة عند الاستلام ومن يرفض الاستلام فهذه فلوسه يستطيع أن يستردها على داير مليم ولا ضير على الحاج فى ذلك. فقد بنى عمارته بمال الناس. وهناك مئات مستعدون لدفع ما يطلب والحاج الذكى لم يكتب إيصالاً أو ورقة بمقدم أو عربون وكله كلام فى كلام.

وهذا العام يدخل أخونا الحاج المجذوب ميدان الموبيليا والأثاث وقد اتفق مع الحاج تركى يسمى الحاج ترمان بدر الدين جاويد يحج سنة ويغزو أخرى كما كان يفعل هارون الرشيد، اتفق معه على إنشاء شركة اثاث حديث تسمى شركة مجذوب - كو. كل ما فيها مصنوع من خشب الجوز إذا شئت أو البوا - دى - روز، من تصميمات المصمم الإيطالى اليصاند - ينو نصايبنى وستشترىها العرائس لأنها جميلة براقه.

وستتبين كل عروس بعد التبات والنبات، أن ما بها ليس بخشب الجوز ولا بخشب على الإطلاق. وسترفع القضايا وتدور ألف خناقة، ولكن ذلك كله لا يهم الحاج المجذوب. وفيما تضيره مائتا قضية جديدة إذا كانت لديه ألف! والمهم أن الأموال تنصب فى جيب صاحبنا بغير حساب، ويبتنى عمارات جديدة، وعلى باب كل عمارة حاجب وبواب. وفى آخر العام سيحج صاحبنا ويغسل آثامه جميعا ويعود إلى أرض الكنانة طاهراً كما ولدته أمه.

والحج فيما قالوا له زيارة وتجارة.

والتجارة عنده ضحك على الناس وشطارة.

وغاب عن باله يا ألف خسارة.

أن هناك نارا وقودها الناس والحجارة.

وأرجو ألا يقع في ذهنك وأنت ترى زيوف الحجاج هؤلاء، أن معظم الحجاج من هذا الطراز، فإن الغالبية العظمى من ضيوف الرحمن مسلمون مخلصون يخرجون للحج فى يسرة أو عسرة وقلوبهم معلقة بالكعبة وربها، وأمنيتهم العظمى فى الحياة هى أن يصل الواحد منهم إلى بيت لله ويحج ويقيم ما شاء الله له أن يقيم ثم يعود. والألوف منهم يخرجون من ديارهم لا يملكون إلا قوت شهر أو شهرين والكثيرون منهم يخرجون من بلادهم فى السنغال أو موريتانيا والنيجر ونيجيريا عند سوكوتو أو كانوا أو من بلاد الجوكون، فيما يعرف اليوم بالجابون، ويسIRON جماعات ترتزق على الطريق ومنهم من يحمل على ظهره زكيبة من التمر الجاف أو الشعير وما تيسر له من الجلود وهو يبيع ويشترى على الطريق، والرحلة طويلة شاقة ولكن الأمل فى زيارة بيت الله يشد عزمهم ويقوى قلوبهم، وغالبيتهم يختارون طريق السودان النيلية، لأنهم يجدون هناك ناساً طيبين فى حاجة إليهم. لأن الأرض واسعة، والناس فى بعض نواحي السودان لا صبر لهم على الزراعة فيكثرون من تيسر لهم من أولئك الناس يعملون لهم فى الأرض فى مقابل نسبة من المحصول ويعمل الرجل منهم فى الأرض سنتين أو ثلاثا حتى يدخر ما يمكن له من مواصلة الرحلة وأولئك هم (الفلاتة) الذين يقومون أيضاً بنشر الإسلام على طول الطريق وهم ناس فى غاية الأمانة والشرف. ينزلون حيث يشاء الله لهم أن ينزلوا فيخدمون ويعطون أضعاف ما يأخذون، والفلاحون يأتئونهم على أموالهم ونسائهم لأنهم أهل أمانة وفضل، فإذا اجتمع للواحد منهم من فضل عمله ما يمكنه من مواصلة الرحلة مضى، وقبل أن تستولى الحبشة على بلاد أريتريا كان حجاج أفريقيا يعبرون إلى الحجاز من موانى زيلع ومصوع وما جاورها ويصلون إلى بلاد اليمن أو عسير، وهناك يعودون إلى الزرع والحصاد،

وشمال اليمن وعسير فى نواحى غامد وأبها وما جاورها من أخصب بلاد الله، فكان أولئك الناس يكسبون هناك مالا طيباً حلال، ثم يصعدون إلى أرض الحجاز فيحجون ويعتمرون، وكان مياسير الحجاج ينفقون الألوفا على أولئك الناس، سواء فى الإقامة أو العودة ولم تكن أرض الحجاز فيما مضى أرض معاش واسع كما هى اليوم فكان معظم الحجاج الأفارقة يعودون كما أتوا فإذا عاد الواحد منهم إلى وطنه حاملاً لقب الحاج لم يعد يعنيه بعد ذلك من الحياة إلا أن يربى أولاده ثم يموت فقيراً قريراً العين، فقد أكرمه الله بأعلى ما فى الدنيا فى إحساسه، وهو زيارة بلده الحرام والطواف حول الكعبة وإقامة شعائر الحج المبرور والوقوف بشباك المصطفى (كامل البهاء والنور) ومثل هذه الرحلة الشاقة كان يتجشمها الألوفا بعد الألوفا من أهل الملايو وجاوة وسومطرة وبلاد البنغال وبقية الهند وأفغانستان وما إلى شمالها من البلاد الواقعة اليوم فى أسر الروس والشيعوية. والله سبحانه يكتب لهم الخروج من سجن الكافرين والعودة إلى عالم الإيمان، ومعظم هؤلاء كانوا يحجون بطريق البحر، إما على نفقة أهل الخير والصلاح وما أكثرهم، وإما عاملين فى السفن وقادين وخداما وحمالين.

وقد قرأت من سنوات كتاباً هو قطعة من الإيمان، عنوانه طريق مجرة إلى السماء.. كتبه شاب طبيب يعمل فى ولاية أيوا الأمريكية، واسمه سيف الدين شوهان، مال وحكايته كما يحكيها كما يحكيها فى كتابه أعجب من الخيال، فإن والده واسمه علاء الدين شوهان كان من حجاج الملايو من إمارة البتوك. وفى سنة ١٩٣٣م قرر الوالد أن يحج بامرأته، إذ أتاحت له فرصة السفر إلى جدة خادماً على إحدى السفن الإنجليزية وتيسرت لامرأته فرصة العمل على نفس السفينة. ووصل الاثنان إلى الأرض المباركة فحجا وجاوراً. ثم انقطعت بهما السبيل، فقد كان الموسم ممحلاً والحجاج الموسرون قليلين، وبعد الحج أقام الرجل وامرأته فى

الحوارى المحيطة بالحرم يبيعان ما يتيسر لهما من خبز وبيض ومتاع رخيص، أو يتسولان، ونزلت بالبلاد نازلة وباء احتملت الوالد علاء الدين شوهان. فمضى مخلفاً امرأته حاملاً وجاء الموسم، ووفد الحجاج، وأنجبت الأم ابناً سيف الدين فى موسم خصب وخير وبركة.

ويشاء ربك أن يحج فى ذلك العام (١٩٣٥م) حاج من مياسير أهل البتك، يسمى تاج الدين - رضا - مال، على سفينة تجارية يملكها، وأوسع الله عليه فكسب فى سفرته تلك مالاً كثيراً، وكان ذات مرة يتسوق حول الحرك فراعته كثرة المتقطعين من أهل بلاده، فألى على نفسه أن يعيد منهم من يريد إلى وطنه.

وكانت أم سيف الدين منهم، فعملت خادمة سفينة العودة ووصلت إلى بلاده مع وحيدها، وهناك عملت فى أرض الحاج تاج الدين، وكان ذلك الرجل الطيب قد افتتح فى أرضه مدارس إسلامية للصغار فدرس فيها سيف الدين ثم ظهرت منه نجابة، فأتفق الرجل عليه من ماله مع مئات من أمثاله ووصل الشاب إلى مدرسة الطب فى كوالا لامبور، وكانت إذ ذاك عاصمة مستعمرة بريطانية وتخرج فى المدرسة وعمل فى مستشفياتها، وهناك لقيه طبيب أمريكي من ولاية أيوا كان يدرس هناك طب المناطق الحارة فأعجب به وتوسط له فى بعثة إلى جامعة الولاية فى ضواحي بلدة ديموين فلما وصل إلى هناك وعرفه الناس أحبوه وعينوه معيداً فى كلية الطب وكان اسمه قد أصبح سيف الدين شوهان مال (مال) كان لقب التاجر الموسر الذى أعاده مع أمه من الحجاز إلى الملايو، وكان الرجل قد أعطى اسمه لكل من شاء من الأولاد والبنات الذين عادوا إلى البلاد على نفقته.

وقد أصبح سيف الدين مال من كبار أساتذة الطب فى جامعة الولاية، فكثر ماله وتزوج من أمريكية أسلمت لأول يوم تعرفت به، وأخذت اسم مريم وهو اسم أمه وجعلت تلح عليه فى العودة إلى بلاده مع أولادهما، فما كادت الحرب العالمية الثانية تنتهى، ويسرح الرجل

من الخدمة العسكرية، حتى عاد بماله إلى ولاية البتك، وهناك عاش وعمل وكتب حكايته في كتابه هذا الذى أشرت إليه.

وإذا كانت الصلاة قرة عين كل مسلم. فإن الحج أمله ومناط حبه، وعلى مدار التاريخ ظلت مواكب الحج من أطراف المعمورة تفد على الأرض المباركة. ويتجشم أصحابها من عناء الرحلة وشظف الحج والقيام بمناسكه ما تجده مفصلاً فى كتب الرحلات، ولكن يشاء ربك أن الحاج مهما عانى من الوصب فى رحلته فلا تكاد عينه تقع على الكعبة حتى يشرق قلبه بالنور، وينسى مضانك الرحلة ومتاعبها. ويفيض قلبه بحب الله ورسوله، ويلهج لسانه بالحمد شاكراً ثم مليبياً.

ويصور لنا ذلك الإحساس الدينى الدافق. الرحالة المشهور محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الغرناطى صاحب كتاب الرحلة الجبيرية الذى يعتبر أجمل كتب أوصاف الرحلات فى أدبنا الجغرافى. لقد قام هذا الرجل بثلاث رحلات للحج من موطنه غرناطة إلى الأراضى المقدسة. وقد ولد فى غرناطة سنة ٥٤٠هـ - ١١٤٥م. وتوفى فى الاسكندرية عائداً من رحلته الثالثة سنة ٦١٦هـ أو ٦١٧هـ - ١٢١٩م، أو ١٢٢٠م وهو معاصر لصلاح الدين. وقد قام برحلته الأولى للحج عندما كانت القدس فى أيدي الصليبيين. ووصف رحلته وصفاً بديعاً. فلما بلغه أن صلاح الدين قد استعاد القدس أسرع يحج مرة أخرى، ثم رحل للحج رحلته الثالثة بعد موت زوجته، وتلك هى رحلته الأخيرة التى مات وهو عائد منها.

وابن جبير دقيق جداً فى وصف رحلته. فهو لا يترك شاردة أو واردة إلا دونها، ولا ينسى ذكر التواريخ قط ولكنه لا يكاد يصل إلى الحجاز بعد مكابدة أهوال شتى فى رحلته الأولى حتى ينسى نفسه ووقته وتواريخه. وتحتاجه العاطفة فيصبح كلامه كله شعراً. وهو لا يرى مكة والمدينة بعينيه بل بعين العاطفة والخيال والإيمان. عندما يقترب من

مكة لا يعود يرى أرضاً أو جبلاً أو ودياناً. إنما هي أنوار تهل عليه، وجنان تحيط به، وعبور تملأ الجو حوله، وما يحس به قلبه يطغى على ما تراه عيناه. وقد قلت فى كلامى عن زحلته تلك فى كتابى (تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس).

ولا غرابة فى ذلك فإن الرجل الذى يحمله الإيمان على ركوب المخاطر، والتعرض للمهالك من ساحل الأطلسى أو من حدود الصين إلى الحجاز ينتقل بشعوره إذا هو اقترب من مهد الإسلام وبلد البيت العتيق أو إذا هو أهل على مدينة سيد المرسلين وعتره بنى آدم. من عالم الواقع إلى عالم الإشراق الروحى، وتستغرق إحساسه نشوة غامرة نحمد أننا كنا ممن عرفها واستشعر جمالها.

الحق أن رحلة ابن جببير قطعة من الأدب الجغرافى إلا عندما يصل إلى مكة المشرفة. هناك يصبح الرجل شاعراً ثم صوفياً فهو لا يتحدث إلا عن الأنوار والبركات والخبرات وهو لا يصف لنا - على عادته - مأكله ومشربه. كأنما استغنى عن زاد الدنيا بزاد المعاد. وهو ينتقل من مشعر إلى مشعر من مشاعر الحج. وكأنه دانته يتجول فى نواحي الفردوس فى صحبة بياتريس. وهو عاشق ولهان - مثل دانته - وهو معذور فى عشقه. فإن الله سبحانه وتعالى قد أفرغ على بيته وما حوله من الجمال ما يجعل أبعد الناس عن الشعر شاعراً، لقد حججت أول مرة سنة ١٩٣٨م. ولم تكن المملكة السعودية قد أنشأت هناك ذلك الإنشاء الباهر الذى نراه اليوم. وإنما كان الحرم المكى أصغر مما هو عليه اليوم بكثير، ولكن صدقنى إننى لا أشعر كيف كان ويقع فى حسابانى أنه كان دائماً بهذه السعة والجمال، ولقد كان الحرم حول الكعبة حصباء إلا المسعى ومع ذلك فإننى لا أذكر إلا أنه كان جميلاً باهر الجمال مفروشاً بالرخام أبداً وأيامها كنا نقيم عند مطوف طيب القلب رحيم بإخوانه أسكننا دوية لطفية هى رحبة تحيط بها حجرات، وتلك الحجرات كانت بيته

مع أهله ، فإذا جاء موسم الحج أخلاها ليؤجرها للحجاج ولا أذكر كم كنا نؤدى إليه ، ولكننى أذكر أننى كنت دائماً أشعر لأنه ينفق علينا أكثر مما تعطيه ، وكان يسمى الحاج خلفان الغامدى ، وكانوا ينادونه بأبى فاطمة ، ولم يكن عنده من الطعام إلا ثريد أو قول مطبوخ بشعير ، وكان رفقائى فى الدار أهل نهم . فما تكاد القصعة توضع حتى يمسحوها مسحاً فلا أكاد أصيب شيئاً وأمضى إلى ساحة الحرم حيث أجلس وأسند ظهري إلى حائط ويأتينى الحاج خلفان وفى يده ابنته فاطمة ومعه خبز وفول ويقول : كل يا بنى ، فما أراك إلا جوعان ، وأنت فيما أرى خلفان مثلى فى شئون المعاش . وآخذ الطعام ، ومعى الصغيرة وأخرج من الحرم وأضع الطبق على عتبة بيت وآكل وبصرى مثبت فى البيت .

وقد تحدث ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتى الطنجى عن مكة والمدينة حديثاً مستفيضاً فى رحلته والحج إلى بيت الله الحرام كان محور حياة هذا الرجل الذى يعد من معالم الحضارة الإسلامية ورحلاته كلها كانت طوافاً دائماً حول البيت من قريب أو بعيد ، وهو يدور ويدور ثم يعود إلى مكة والكعبة ولقد حج ست مرات وجاور أثناء رحلاته فترات إذا جمعتهما كانت نحو ثلاث سنوات وله فى كلامه الكثير ملاحظة لو قرأتها وتأملت أحوال مكة اليوم لنالك العجب فقال (إن الله سبحانه وتعالى شاء أن تكون مكة بواد غير ذى زرع ولكنه ساق إليها الخيرات من كل صوب فكل طرفة تجلب إليها وثمرات كل شىء تجلب إليها . ولقد أكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ الطيب والرطب مالا نظير له فى الدنيا . وكذلك البطيخ المجلوب إليها لا يماثله سواه طيباً وحلاوة واللحوم بها سمان لذيزات الطعوم . وكل ما يفترق فى البلاد من السلع فيها اجتماعه وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادى نخلة وبطن قر لطفاً من الله بسكات حرمة الأمين ومجاورى بيته العتيق) .

وابن بطوطة كان فى مكة فى حجته الأولى فيها بين رجب وذى الحجة سنة ٧٣٨ هـ نوفمبر ١٣٢٨م أى أن بيننا وبين كلامه هذا نحو ستة قرون ونصف، ومع ذلك فأنت تشعر وكأن مكة فى أيامه هى مكة اليوم وكأن الرجل كان يجد ما يريد فى واحد من (السوير ماركت) التى توجد فى مكة وكل بلاد المملكة السعودية اليوم. وهذا فى حقيقة الأمر شىء عجيب فإن الله جعل بلده الأمين فى واد غير ذى زرع ثم ساق إليه الناس الخيرات من كل مكان، حتى يشعر الإنسان بالأمن والسعة والرخاء فيه، حتى فى أيام الخوف والشدة والمجاعة وقد أشار إلى ذلك إبراهيم رفعت باشا فى كتابه الممتع (مرآة الحرمين).. فقد كان ضابطاً فى الجيش فحمل معه (المبرة) من مصر وكأنه نازح إلى بلاد لا طعام فيها ولا زاد، فما كاد ينزل به حتى تعجب من وفرة الخير فى كل موضوع، وكان الناس يدعونه إلى بيوتهم، فيطعم عندهم بأكثر وأحسن مما كان يطعم فى القاهرة، حتى جعل عساكره يفرقون فى الناس ما لديهم من (البقسماط وجراية العسكن)، فنهرم وأمرهم بالمحافظة عليها خوف المجاعة. وانتهى الأمر فى خاتمة زيارته الأولى بأن أمره جنده بنفسه قبل العودة أن يفرقوا ما لديهم من الطعام فى الناس (فقد استغنينا طوال الرحلة عن ميرة الجيش والبقسماط).

وهذا الرخاء المادى الذى يتحدث عنه ابن بطوطة فى كلامه عن مكة، يعود بنا إلى الرخاء المعنوى الذى كانت مكة ومدن الحجاز تتمتع به خلال العصر الأموى. لأن مكة التى كانت قطب السياسة والمال فى العصر الجاهلى تحولت بعد الإسلام إلى ضاحية من ضواحي المدينة المنورة، لولا البيت العتيق، ثم انتقلت السياسة إلى الشام، وانتقل صراع القبائل إلى خراسان والمغرب والأندلس، وبقي الحجاز هادئاً ساكناً يعيش فيه فى أمن ودعة من أراد العيش فى أمن ودعة خلال العصر الأموى المضطرب. وهنا، فى جو هادئ لم تعكر صفوه السياسة إلا أثناء فتنة ابن الزبير، عاش شاعر الغزل الرقيق الشريف عمر بن أبى ربيعة وهو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى وهو أشعر من أطلعت

قريش في تاريخها، ويكاد شعره يشف على شعر الشريف الرضى، وهو ثانی شعراء قريش من ناحية الشاعرية والإلهام، ونحن في الحجاز مع عمر بن أبي ربيعة وكأننا مع فولفجانج جيته في فايمار، فكلاهما شاعر عظيم يأخذ شعره بالألباب والعقول. ولقد تعلم الناس على يدى أبى الخطاب عمر بن أبى ربيعة كيف يقولون شعر الغزل فى عفة وتصاوان وكمال وكان الناس يقرءون ما يحكيه من معاشقة ومغامراته فى أشعاره ويعرفون أنها خيال فلا يغضبهم ذلك منه. وكانت كريمات العقائل يسعين إلى عمر ليذكرهن فى شعره وأى امرأة لا تحب أن يقال الشعر فى جمالها؟! وهذا القول لا يضير أهلها أو يمس شرفهم فهذا كله كلام شاعر عفيف يتخيل ولا يرى والحال فى هذا يشبه ما تفعله كرائم العقيلات على طول التاريخ فى الغرب من القعود للفنانين لرسم صورهن وإضفاء لمسة الخيال على ما منحهن الله من حسن وجمال ولقد رأيت من أسابيع مجموعة من الصور رسمها كبار مصورى العصر لأميرة الأساطير فى أيامنا جريس باتريشيا كيلي التى أضفى عليها الموت المبالغت جمالا ليس بعده جمال، رأيت صورها بعدسات كبار مصورى عصرنا: أيروين بلومنفيلد وهويل كونانت وجوسف كارش وفيليب هالسمان وباك هنرى لافارج، فقلت: هذه والله أشعار أبى الخطاب صارت صوراً! وهنا فى مكة والمدينة ترك الناس السياسة لأهل السياسة وعاشوا فى ودعة وأمان، وجعلوا من مكة والمدينة خلال قرابة القرن عواصم الشعر والفن وواحة أهل الإلهام وأطلعت مخزوم عبقرىها الثانى بعد خالد بن الوليد بن المغيرة وهو عم شاعر الغزل الخالد.

وبعد هذا الطواف فى عالم الخيال والتاريخ، نعود إلى الواقع وحجاجة. نعود للغم والنكد والمعلمين الذين اتخذوا الحج ممحاة يمحوون به آثامهم وما يفعلون بنا قاتلهم الله! وهنا نجد أن الداء قديم وقد تحدث عنه الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م فى كتابه الممتع؛ (تلبيس إبليس) وهو كتاب لطيف لم يجد عند أهل الأدب والتاريخ ما يستحق من عناية، وصاحبه. وهو من أعظم الفقهاء يكشف فيه عن آثام عصره وعيوب أهله ويقول إن هذا

الشر كله إنما أتى من إبليس الذى يتسلل إلى نفس الإنسان ولا يزال به حتى يضلّه عن السبيل وله فى ذلك حيل وأساليب يفصلها ابن الجوزى فى فصول كتابه. وفيما يتعلق بالحجاج يقول ابن الجوزى وكأنه يتحدث عن صاحبنا الحاج حسنين عبد الدايم عتبة وصاحبه الحاج محمد بن عوضين المجدوب ممن يأكلون مال النبى ويهضمون مال بيوت الله وقد لبس إبليس على جماعة من القاصدين إلى مكة فهم يضيعون الصلوات. ويطفقون إذا باعوا ويظنون أن الحج يدفع عنهم. وقد لبس إبليس على قوم منهم فابتدعوا فى المناسك ما ليس منها. فرأيت جماعة يتصنعون فى إحرامهم فيكشفون عن كتف واحدة عن كتف واحدة ويبقون فى الشمس أياما فتكشط جلودهم وتنتفخ رؤوسهم، ويتزینون بين الناس بذلك وهؤلاء كانوا يحجون لكى يقول الناس: ما أتقاهم! أو لعلمهم حسبوا أنهم بذلك يمكرون على الله. والله سبحانه خير الماكرين.

هؤلاء الناس جميعا لا يحجون. إنما يسافرون إلى الحجاز ويعودون. أما الذى يحج فما يلبسون وعليهم جميعا ينطبق قول من قال: أنفقت مالى وحج الجمل! أى الجمل الذى حجوا عليه. وربما طافوا وسعوا به، فحج الجمل ولم يحج صاحبه وما أحسب لأن لهم ثواب حج أو عمرة. وحالهم كحال جار لنا ممن يحج عامًا ويغزو عامًا. أما فى عام الحج فهو ناسك وأما فى عام الغزو فهو فاتك ينتقل بين لندن وباريس ولا يكاد يترك موبقة إلا أتاها. ثم يمضى إلى الحجاز فى العام التالى يغسل ذلك كله. فى حسابه وكأنه بين حجة وعزوة يفسر فى جهل شديد قول الله سبحانه فى سورة التين ﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين﴾